المادّية المقاتلة

ردّ على السيّد بوجدانوف

بليخانوف



تعريب
محمّد أبو خضّور

المكتبة الاشتراكية

بليخانوف

المادية المقاتلة

رد على السيد بوجدانوف

تعريب
محمد أبو خضور



دار دمشق للطباعة والنشر

G. V. Plekhanov

Materialismus Militans

Reply to Mr. Bogdanov

First printing 1973

Translated from the Russian

Edited by Richard Dixon

Progress publishers

Moscow

مقدمة الناشر

ينتسب جيورجي فالينتنوفبش بليخانوف ١٨٥٦ – ١٩١٨ الى الجيل الاول من الماركسيين الروس ، والى أولئك الافراد الذين أرسوا الأسس لنشر تعاليم كارل ماركس الثورية في روسيا . وقد كان نشاط بليخانوف الادبي كمتنور ثوري خصبا جدا . فكتب حول نظرية وتاريخ الماركسية ، الفلسفة ، علم الاجتماع ، الاقتصاد السياسي ، تاريخ الروس ، النقد الادبي ، وعلم الجمال .

وهكذا امتدت أعماله الثورية خارج الحركة الاشتراكية الروسية .

وحاز بليخانوف بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٠ على الشهرة والسلطة بين الاشتراكيين في أوروبا الغربية واميركا كمنّر بارز للماركسية وحركة الطبقة العاملة .

وشكل بليخانوف في عام ١٨٨٣ مع مهاجرين آخرين من روسيا في جنيف أول فرقة ماركسية روسية – فرقة تحرير العمل(١) – التي اخذت على عاتها وبنجاح مهمة دحض الافكار

(١) فرقة تحرير العمل : أول فرقة ماركسية – روسية . أسسها بليخانوف في جنيف عام ١٨٨٣ وعدا بليخانوف . كانت تضم هذه الفرقة اكسلرود ، ودايتش، وزاسوليتش ، واغنانوف . وقد اضطلعت فرقة تحرير العمل بدور هام في نشر مؤلفات مؤسسي الماركسية . « بيان الحزب الشيوعي » لماركس وانجلز ، « العمل المأجور والرأسمال لماركس » الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية لانجلز .. الخ . وقد سدد بليخانوف وفرقته « تحرير العمل » ضربة قوية للشعبية. كذلك كتب بليخانوف مشروعي برنامجين للاشتراكيين الديموقراطيين الروس في

الايديولوجية الخداعة المضللة التي كانت سائدة في ذلك الوقت صلب المثقفين الروس الذين اشتركوا في ــ أوكانوا تحت تأثير ــ النارودية(١) .

وفي فترة النضال ضد النارودية (١٨٨٣ ــ ١٩٠٣) انجز بليخانوف أحسن أعماله الفلسفية والاجتماعية وشرح مفسراً فيها مبادىء الماركسية.

عامي ١٨٨٣و١٨٨٥وقد نشرتهما فرقة « تحرير العمل » فكانا خطوة كبيرة نحو كبيرا في نشر الماركسية في روسيا . وفي عداد هذه المؤلفات : « الاشتراكية والنضال السياسي » (١٨٨٣) ، « خلافاتنا » (١٨٨٥) « دراسة حول تطور المفهوم الاحادي عن التاريخ » (١٨٩٥) . ولكن الفرقة اقترفت من جهة اخرى عددا من الاخطاء الجسيمة : بقايا مفاهيم شعبية ، استصغار دور الفلاحين الثوري ، استعظام دور البورجوازية الليبرالية الذي كان ينطوي على بذرة المفاهيم المنشفية المقبلة لدى بعض أعضائها ومنهم بليخانوف بالذات . ولم تكن فرقة « تحرير العمل» مرتبطة عمليا مع الحركة العاملة . وقد قال لينين ان فرقة «تحرير العمل » لم تبن الاشتراكية الديمقراطية الا نظريا ولم تخطو غير الخطوة الاولى نحو الحركة العاملة . وفي شهر آب عام ١٩٠٣ أعلنت فرقة « تحرير العمل » حل نفسها .

(١) اتجاه برجوازي صغير ظهر في الحركة الثورية الروسية في العقدين السادس والسابع من القرن التاسع عشر ، أراد الناروديون الغاء الاوتوقراطية وتسليم أملاك الاقطاعيين للفلاحين . قالوا ان الفلاحين يشكلون القوة الثورية الاساسية في البلاد وأن جنين الاشتراكيين هو الجماعة القروية . ما كانوا يعتقدون بدور صراع الطبقات في التطور التاريخي بل اعتقدوا أن التاريخ من صنع الابطال الذين يتبعهم الشعب .

تصالح الناورديون في العقد الثامن والتاسع مع القيصرية وصاروا يعبرون عن مصالح الفلاحين الاغنياء (الكولاك) وشنوا نضالا ضد الماركسية .

ولم ينتقد المفاهيم الفلسفية والاجتماعية للناروديين الروس فحسب ، بل لعبت كتاباته ايضا دورا عظيما في النضال ضد الفوضوية والنقابية الفوضوية في اوروبا الغربية .

وفي أواخر عام ١٨٩٠ كان بليخانوف أول من هاجم التحريفية التي قادها ادوارد(١) برنشتاين Eduard Bernstein و كونراد شميدت(٢) Konrad Schmidt ومحاولاتهما استبدال نظرية ماركس وانجلز الثورية بالمذهب الاصلاحي .

وبعد عام ١٩٠٣ انتقل بليخانوف الى المذهب المنشفي ـ الاتجاه النفعي في الاشتراكية الديموقراطية الروسية ـ وارتكب عددا من الاخطاء في تمجيد التطورات المعاصرة ، وقد انتقده لينين Lenin بسبب ذلك بشدة .

وعلى أي حال فقد كتب لينين عام ١٩٢١ فيما يتعلق بكتابات بليخانوف ... « أظن انه من اللائق ان أبدي ملاحظة لمصلحة اعضاء الحزب الشباب ، تلكم هي ، انك لا تستطيع ان تأمل أن تصبح شيوعيا مثقفا حقيقيا بدون دراسة ـ وأقصد دراسة ـ لكل كتابات بليخانوف الفلسفية ، لانه لم يكتب عن الماركسية في أي مكان من العالم ، أحسن من هذه الدراسات » .

وكتب لينين في مقالته « الماركسية والتحريفية » المنشورة عام ١٩٠٨ : « كان بليخانوف هو الماركسي الوحيد في الحركة الديموقراطية الاشتراكية الدولية الذي انتقد تفاهة المرتدين التي لا تصدق من وجهة نظر مادية جدلية متماسكة . وهذا يجب

---

(١) ادوارد برنشتاين (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢) قائد جناح متطرف انتهازي في الديمقراطية الاشتراكية الالمانية كان يؤيد الانشقاق عن الماركسية بصراحة .

(٢) كونراد شميدت (١٨٦٣ ـ ١٩٣٢) اقتصادي وفيلسوف ألماني .مؤلف عدة أعمال استخدمت كمصدر نظري للتحريفيين .

التأكيد عليه بصورة اكثر حيث ان تجارب خاطئة تماما تحدث في الوقت الراهن لتهريب نفايات فلسفية رجعية متنكرة في زي نقد انتهازية بليخانوف » .

ان نضال بليخانوف ضد المذهب الماخي ، وبنـــاء الإله(١) (God - Bulding)وانواع اخرى من المثالية ، كان حدثا هاما في تاريخ الفلسفة الماركسية ، وقد كتب بليخانوف أعمالا هامة ضـــد الماخيين وتضم هذه الاعمال نقداً عنيفـا للآراء المثاليـة التي كان يتمسك بها الماخيون الـروس وأساتذهـــم الاجـانب ــ ماخ(٢) وأفيناريوس(٣) .

وقد وجهت الرسائل الثـلاث « المادية المقاتلة » بصـــورة اساسية ضد ا . آ . بوجدانوف(٤) ، وهو ممثل بارز للماخيـة الروسيـــة .

---

(١) بناء الاله God - Building تيار فلسفي ديني معاد للماركسية ظهر في عهد الرجعية بين بعض مثقفي الحزب الذين تركوا الماركسية بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ــ ١٩٠٧ كان « بناة الإله » (لونا تشارسكي ، وبازاروف وآخرون) يبشرون بخلق ديانة جديدة « اشتراكية » ساعين الى التوفيق بين الماركسيـة والدين . وقد انتسب مكسيم غوركي في وقت ما الى هذه المجموعة .

وقد فضح لينين الطبيعة الرجعية « لبناء الإله » في كتاب المادية والتجريبية النقدية وفي رسائله الى غوركي المحررة بين شباط ــ نيسان (١٩٠٨) وبين تشرين الثاني ــ كانون الاول (١٩١٣) .

(٢) ارنست ماخ (١٨٣٨ ــ ١٩١٦) Ernest Mach فسيولوجي وفيلسوف مثالي ذاتي ألماني .

(٣) ريشارد أفيناريوس Richard Avenarius فيلسوف مثالي ألماني وأحد مؤسسي **المذهب النقدي ــ التجريبي .**

(٤) بوجدانوف (اسم مستعار لاكسنـدر الكسندروفيش مالينوفسكي) (١٨٧٣ ــ ١٩٢٨) فيلسوف وعالم اجتماع واقتصادي . في عام ١٩٠٧ دافع من أجل ادخال روح التطور في الماركسية ثم نادى بالمذهب الاحادي التجريبي وهو أحد أنماط المذهب النقدي ــ التجريبي .

ان الدافع الآني لكتابة هذه الرسائل « المادية المقاتلة » قدّم من قبل رسالة مفتوحة الى بليخانوف كتبها بوجدانوف(٤) في الصحيفة الشهرية « صحيفة الحياة » « Vestnik Zhizni » العدد السابع لعام ١٩٠٧ (ولهذا السبب كان عنوان رسائل بليخانوف الثلاث،رد على السيد بوجدانوف») ولكن السبب الاكثر عمقا لظهور هذه الرسائل كان ضرورة التصدي للتحريفيين الذين كانوا يحاولون استبدال الماركسية بالماخية . وكان بليخانوف على ما يبدو متأثرا برسائل اعضاء الحزب بمختلف درجاتهم التي كانت تذكر ضرورة الرد عليه .

بدأ بليخانوف العمل في مقالاته الثلاث في أوائل عام ١٩٠٨ وقد طبعت الرسالة الاولى في صيف عام ١٩٠٨ في العددين السابع والثامن (أيار ـ حزيران) من مجلة المنشفيك المسماة .
Golos Sotsial - Demokrata

أما الرسالة الثانية فقد انتهت في أيلول . وفي الخامس من تشرين الاول ١٩٠٨ كتب بليخانوف الى مارتينوف وهو أحد محرري المجلة المذكورة والذي أراد أن يختصر مقاله النقدي « أنا لا أعرف بالضبط كم رسالة توجد في مقالي ، إلا انني اعرف انه يجب الا يختصر ... ضع نفسك في مكاني ، فقد طلبوا مني ، بل ألحوا عليّ في الحقيقة لأن ابدأ جدالا مع بوجدانوف . وقد انتحلت الاعذار لوقت طويل : ان دان هو شاهدي . وفي النهاية أخذت قلمي وحطمت الوحش . وأخبرتَ الآن بأن المقال النقدي « يجب أن يختصر او يؤجل » . هل رأيت قطة وفأراً في فمها ؟ حاول أن تنصحها باختصار او تأجيل فريستها : القطة تهرهر فقط . والشيء ذاته يحدث معي . حيث لا يمكنني الاختصار او التأجيل . ان الذي يتكلم في داخلي الآن هو شعور الصياد الذي قد تضيع منه اللعبة ... يجب على بوجدانوف ان يموت الآن .

اللعنة على العبارات ! »

وكنتيجة لموقف بليخانوف المتصلب فان رسالته الثانية نشرت دون أي اقتطاع في العددين الثامن والتاسع «تموز ـ أيلول» من مجلة Golos Sotsial - Demokrata التي ظهرت في تشرين الاول عام ١٩٠٨ ولم تنشر الرسالة الثالثة في مجلة Golos Sotsial - Demokrata التي كان بليخانوف على خلاف مع هيئة تحريرها في أواخر عام ١٩٠٨ . ولكنها كتبت خصيصا لمجموعة من مقالاته تحت عنوان « من الدفاع الى الهجوم » (١٩١٠) .

وقد ضمّن بليخانوف رسائله الثلاث ضد بوجدانوف في المجموعة . وكتب مقدمة قال فيها حول النقاد التجريبيين : «أن بعض هؤلاء الناس المجدين يدعون ويعتبرون أنفسهم باخلاص اعداء البوجوارية . وفي روسيا مثلهم كبوجدانوف ولوناتشارسكي(١) ولكن في أحسن الحالات يمكن للانسان ان يقول عن هؤلاء الناس بأن قلوبهم في خلاف عنيف مع عقولهم : ان عقولهم تعمل لصالح تلك الطبقة التي تقف قلوبهم ضدها » .

لم يكن هناك مزيد من طبعات هذه الرسائل ابان حياة مؤلفها . وفي الطبعة الحالية فان نص الرسالتين (الاولى والثانية) يطابق النص الذي نشر في Golos Sotsial - Demokrata

ويطابق نص الرسالة الثالثة النص الذي نشر في مجموعة « من الدفاع الى الهجوم » .

دار التقدم ـ موسكو

---

(١) أناتولي فاسيليفيش لوناتشارسكي Anatoly Yasilyevich Lunacharsky (١٨٧٥ ـ ١٩٣٣) رجل دولة سوفياتي وشخصية عامة . في سنوات الردة (١٩٠٧ ـ ١٩١٠) أصبح ماخيا .

الرسالة الأولى

« لقد طلبت ذلك يا جورج داندن »

سيدي العزيز :

تضمن العدد السابع من صحيفة الحياة Vestnik Zhizni لعام ١٩٠٧ « رسالتك المفتوحة الى الرفيق بليخانوف » . وبينّت الرسالة بوضوح انك غير راضٍ مني لاسباب عديدة . وان السبب الاكثر اهمية بين هذه الاسباب — ان لم اكن مخطئا — هو انني وخلال ثلاث سنوات مضت — كما بينّتَ — كنت اتجادل بعنف مع التجريبية الاحادية ، بدون ايراد حجج جادة ضدها . وان « الطرائق » التي أنتهجها — كما بينّتَ مرة ثانية — قد كُتِبَ لها بعض النجاح . ثم تلومني مخاطبتي إياك بالسيد بوجدانوف ، وبالاضافة الى هذا ، فانك غير راض عن مراجعتي لـ Dietzgen's Das Akquisit der philosophie and Briefe über Logik.

وتقول انني حذّرت القراء ايضا ألا يكونوا ساذجين او غافلين أبان تقربهم من فلسفة **داتيزجن**[1]، على اساس ان ذلك ينطبق عليك في

---

(١) جوزيف داتيزجن (١٨٢٨ — ١٨٨٨) عامل ألماني ديموقراطي اشتراكي . فيلسوف توصل لوحده للمبادىء الرئيسية للمادية الجدلية .

بعض الاحايين . وسأشير الى سبب آخر لاستيائك مني . لقد أكدت ان بعضا من أولئك الذين يعتنقون آراء مشابهة لآرائي قد اقترفوا ما يداني التهمة « الاجرامية » ضدك . وتزعم انني ــ والى حد ما ــ يجب آن اكون موضع لوم « لتشويشهم واربا كهم » . باستطاعتي أن أعدد قائمة ، بالملامات آلتي وجهتها ضدي . ولكن لا حاجة لهذا . والنقاط آلتي اشرت اليها كافية للغاية لكلينا للبدء بتوضيح تكمن فيه فائدة عامة .

ومن اجل وضع آلنقاط على الحروف، فسوف أبدأ بما يبدو لي مسألة من الدرجة آلثانية حسب الاهمية ــ ان لم تكن من الثالثة ــ ولكنها تبدو كبيرة آلوزن في ناظريك . أعني مسألة « لقبك » .

تعتبر نفسك مهانا عندما أخاطبك « بالسيد » وتقول انه لا حق لي باهانتك ! وأسارع في آلتأكيد لك ، سيدي العزيز ، حول هذه آلنقطة ، إنه لم يكن في نيتي اهانتك قط . ولكن اشارتك العابرة الى الحقوق أعطتني سببا للتفكير بأنك تعتقد ان احدى **التزاماتي** الديموقراطية الاشتراكية ان أدعوك رفيقا . ولكن ليكن الله واللجنة المركزية قضاتي انني لا أعترف بأي نوع من هذا الالتزام ! وسبب هذا بسيط وواضح ذلكم **أنك لست رفيقا لي** . انت لست رفيقي ، لأنني واياك نمثل وجهتي نظر **تتعارضان بشكل مباشر** . وفي حين ان القضية بالنسبة لي هي قضية دفاع عن وجهة نظري ، فانك بالنسبة لي لست رفيقا ، بل إنك ــ واطلاقا ــ من آكثر الخصوم عداوة . فلماذا اذن يجب ان أكون كاذبا ؟ لماذا يجب ان أحمل آلكلمات معنى باطلا ؟

ذات مرة ، قدم بوالو[1] (Boileau) نصيحة ثمينة : « سم الامور بمسمياتها » . وانا اتبع هذه النصيحة المقنعة . انا اسمي الامور بمسمياتها . وأنت لا تجريبي . انا ادعو **رفاقا** فقط أولئك الذين يحملون أفكارا كأفكاري ويخدمون القضية ذاتها التي تبنيتها معتقدا منذ أمد طويل قبل ان يبرز البرنشتانيون والماخيون ونقاد ماركس الآخرين . فتمعّن يا سيد بوجدانوف بالامر وحاول ألا تكون متحيزاً ، وأخبرني هل انني فعلا **((لا حق لي))** بأن اتصرف بهذه الطريقة ؟ وهل انني مجبر على التصرف بطريقة ثانية ؟

وأكثر من ذلك ، فانك على خطأ رهيب ، سيدي العزيز ، اذا كنت تتصور انني ألمح باشارات بينة او مستترة للتأثير بوجوب **((طردك))** على الاقل ــ ان لم تُشنق ــ من تخوم الماركسية وفي ابكر وقت ممكن . واذا كان ينوي اي انسان معاملتك بهذه الطريقة ، فحتى دومبادز[2] (Dumbadze) وبكل قوته العجيبة لن يكون قادرا على طرد انسان لا يسكن في أملاكه .

وموقعك خارج حدود الماركسية واضح لكل أولئك الذين يعرفون ان الصرح الشامل لهذه التعاليم يرتكز على اساس المادية الجدلية ، وواضح لأولئك الذين تيقنوا بأنك مقتنع بالماخية ، لا تتبنى ولا تستطيع تبني وجهة نظر المادية . ولمصلحة أولئك الذين لا يعلمون ولم يتحققوا من هذا بعد ، فانني أعيد المقطع التالي الذي جاء وبقلمك ، في وصف اتجاه الفلاسفة العديدين

---

(1) نيكولاس بوالو (١٦٣٦ ــ ١٧١١) شاعر فرنسي واحد منظري المذهب الكلاسيكي .

(2) ايفان أنتونوفيش دومبادز . (١٨٥١ ــ ١٩١٦) جنرال قيصري .عندما كان حاكما ليالطا أقام نظاما من الرعب والارهاب .

بالنسبة « للشيء في ذاته(١) » تنازلت بكتابة التعليق :

« تبنى الماديون وسيلة ذهبية اكثر خطورة ، فهم الذين رفضوا **المطلق** الذي لا سبيل الى معرفته بالنسبة لل « شيء — في ذاته » ، ولكنهم في الوقت ذاته اعتبروه مختلفا **بشكل أساسي** عن (الظاهرة) ، وبناء على ذلك ، اعتبروه خارجا عن نطاق التجربة ، ولكنه معروف « بشكل غامض » في الظاهرة « معرفة غامضة » وبقدر ما يكون معنيا (يعني وافتراضا بقدر ما تكون عناصره معنية ، وهي ليست مثل عناصر التجربة) ولكنها تقع داخل حدود ما يدعى صور التجربة ، مثل الزمان والمكان والعلية. ومثل هذا تقريبا وجهة نظر الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، ووجهة نظر الفلاسفة الحديثين ومن بينهم انجلز ومريده الروسي بيلتوف » .

هذا المقطع غير المصقول — من غير ريب — **في ((مضمونه))** سوف يفسّر الامور حتى لأولئك الناس الذين يتحدثون على وجه العموم ولا يأبهون بالفلسفة . وسيكون من الواضح وحتى بالنسبة اليهم انك ترفض وجهة نظر انجلز. واولئك الذين يعرفون ان انجلز كان منسجما — وبكل ما في هذه الكلمة من معنى — مع مؤلف **رأس المال** في ميدان الفلسفة سوف يدركون أيضا بسهولة انك عندما ترفض وجهة نظر انجلز فانك بذلك ترفض وجهة نظر ماركس وتنضم الى **((منتقديه))** . إنني ارجوك يا سيدي العزيز الا تخاف ، والا تعتبرني مثل أولئك البومبادوريين الذين يفلسفون الامور ، وألا تتخيل انني أثبت او أجعل من موالاتك

(١) Thing - in itself

(٢) أ.أ. بوجدانوف . الاحادية التجريبية . الكتاب الثاني ص٣٩ . موسكو ١٩٠٥ وبيلتوف هو الاسم المستعار لبليخانوف .

لخصوم ماركس سببا ((**لطردك**)) . وأقول ثانية انه من المستحيل طرد انسان من ((**حدود**)) اية تعاليم هو في واقع الامر خارجها . وفي المجال الذي يعني نقاد ماركس فان اي شخص حتى ولو لم يدرس في حلقة دراسية فانه يعرف الآن ان أولئك السادة قد خرجوا عن حدود الماركسية وان امر احتمال عودتهم بعيد جدا .

ان ((**حكم الاعدام**)) هو معيار غير صالح ، واكثر قسوة من ((**الطرد**)) وحتى لو كنت قادرا على الاشارة ، سيدي العزيز ، الى ضرورة ان تكون ((**تكون مشنوقا**)) (ولو ان ذلك بين علامتي الاقتباس على الورق) ، فانني أستطيع طبعا ، وبمناسبة مؤاتية ان أكون ميالا الى فكرة ((**طردك**)) ولكنك في هذا ايضا أفسحت المجال إما لخوف لا مبرر له البتة ، او أطلقت العنان لسخرية لا أساس لها من الصحة .

وأقول لك للمرة الاخيرة انه لم تكن لدي قط اية رغبة ((**لشنق**)) أي انسان . وسأكون ديموقراطيا آشتراكيا مسكينا لدرجة كبيرة اذا كنت لا أدرك معنى الحرية التامة في البحث النظري . وسأكون ديموقراطيا اشتراكيا اكثر مسكنة اذا كنت لا أدرك ان **حرية البحث** يجب ان تترافق وتتكامل مع حرية **الناس في تجمعهم طبقا لأفكارهم** . وانا مقتنع – ومن لا يكون مقتنعا ؟ – بأن الناس الذين يختلفون جوهريا في النظرية لهم الحق ، كل الحق ، ان يختلفوا ايضا في التطبيق . وان يجمعوا انفسهم في معسكرات مختلفة . ومع ذلك فانني مقتنع بأن « المواقف » تبرز عندما يكون من واجبها البروز ، او لم تعرف ذلك من عصر بوشكين (1) :

ليس من العدل المواجهة

---

(1) الكسندر سيرجيفيش بوشكين (١٧٩٩ – ١٨٣٧) شاعر روسي .

بـين الحصـان المسرج
للقتال والارنب المـرتعد

وباسم حرية التجمع هــذه ، التي لا يرقى اليها الشــك ولا تقبل الجدل ، دعوت الماركسيين الروس مرارا لتشكيل جماعة خاصة من أجل نشر أفكارهم ولفصل انفسهم عــن باقي الفئــات التي لا تشاطر الماركسيين افكارهم حــول بعض القضايا . ولقد عبرت مرارا وبعاطفة مفهومة عن الراي القائل بـأن أي غموض في المذهبية (Ideology)(١) يجلب اذى كبيرا . واعتقــد ان عــدم الوضوح العقائدي وخاصة الآن ضار لنا ، في الوقت الذي يحتل فيه المذهب المثالي بمختلف انواعه ودرجاته ، وتحت تأثــير ردة الفعل وفي سياق حجة تصحيح القيم النظرية مكانا واسع الانتشار في ادبنا . وفي الوقت الذي يدعى فيه بعض المثاليين ومن اجــل نشر أفكارهم الخاصة ، ان أفكارهم هي آخر نمــوذج ماركسي ! وان ايماني الراسخ والعميق وهذا الشيء ـ على الاقل ـ لم أتأخر في التعبير عنه ، بأن الانفصال النظري عن هؤلاء المثاليين هــو الآن أمر ضروري اكثر من أي قبل . وانا ادرك ان هذا لن يكون مستحبا في بعض الاحايــين من قبــل المثاليين (وخــاصة ضمن أولئــك الذين يودون تمرير سلعهم تحت راية الماركسية) ورغم ذلك فقد أكدت وبتصميم ان أولئك الذين يلومونني انطلاقا من هذه الاسس

---

(١) المذهبية أوعلم الافكار أو الايديولوجيا . ابتدع هذا المصطلح دستو دي تراسي للدلالة على الفلسفة التي تطرح جانبا النظر الميتافيزيقي وتقصر همها على دراسة المعاني (بالمعنى العام أي الظواهر النفسية) لتبين خصائصها وقوانينها وعلاقتها بالاشارات المعبرة عنها ، محاولة بنوع خاص استكشاف أصلها . انصرف هذا المصطلح بعد ذلك الى معنى ينطوي على السخرية والتحقير فدل على التحليل الاجوف والمناقشة العقيمة والتفكير الخيالي .

ويحاولون الاعتداء على حرية انسان ما (بالطرد) أو حتى بالاعتداء على حياته (بالشنق) انما يكشفون عن فهم ضيق لتلك الحرية التي يقاضونني باسمها .

وعندما أدعو أولئك الذين يتبنون وجهة نظر مشابهة لوجهة نظري لفصل انفسهم عن اولئك الاشخاص الذين لا يستطيعون أن يكونوا رفاقهم في العقيدة فانما استخدم بذلك حقا متاحا لكل **انسان ومواطن** ، حق غير قابل للتجيير . وعندما تثير يا سيد بوجدانوف دعوى مضحكة حول هذا وتتهمني بتهديد **شخصكم** ، فانك بذلك تظهر وببساطة ووضوح انك قد استوعبت وبشكل سيء فكرة ذلك الحق غير القابل للتجيير .

وفي حين أنك ، غير ماركسي ، فلا شيء أحب اليك من اننا نحن الماركسيين يجب ان نقبلك **كرفيق** لنا . وتذكرني بالام في احدى قصص غليب أوسبنيسكي[1]
(Gleb Ivanovich Uspensky)
فقد كتبت تلك الام الى ابنها تقول أنه ما دام يعيش بعيدا عنها وهو غير مشتاق لرؤيتها فانها ستتشكى عليه لرجال الشرطة ، وتطلب من السلطات ارساله « مخفورا » كي تعانقه . وهذا اللامبالي في قصة اوسبنيسكي الذي وجه اليه هذا التهديد من قبل امه ، ينفجر بالبكاء عندما يتذكر هذا التهديد . ونحن الماركسيين الروس لن نبدأ الندب لمثل هذه الامور أو الاسباب . ولكن هذا ايضا لن يوقفنا عن القول لك وببرودة أعصاب تامة اننا نود الاستفادة من حقنا في عزل انفسنا عن الآخرين وانه لا أنت ولا اي انسان آخر مهما يمكن ان يكون ، سينجح في **« معانقتنا »** و **« تحت الحراسة »** .

---

(1) غليب ايفانوفيش اوسبنيسكي (١٨٤٣ ـ ١٩٠٢) كاتب روسي .

وسأضيف ما يلي : وآذا شابهتُ على اي حــال بعض قضاة التحقيق او غيرهم ، واذا كنت أؤمن على اي حال انه يمكــن ان يوجد اناس يستحقون عقوبة الاعدام (وحتى بين علامتي الاقتباس على آلورق) لمعتقداتهم ، فيجب عليّ : برغم ذلك ، الا اعــدّك يا سيد بوجدانوف من بينهم ! ويتحتم عليّ بعدئذ القول بيني وبين نفسي : آن حق الاعدام تقرره الموهبة . وليس هناك آثر للموهبة لدى منظرنا للاحادية التجريبية ، فهو لا يستحق الاعدام .

انك يا سيدي آلعزيز، تحديتني باستمرار آن آكون صريحا. ولذلك فلا تغتظ اذا كنت كذلك .

بالنسبة لي ، آنت لست مثل فاسيلي تريدياكوفسكي(١)
Vasily kirillovich Tredyakovsky
الذي ينعم بذاكرة مباركة ، انسان مجتهد وبدرجة معتبرة .ولكنه وآأسفاه ، آنسان ضئيل الموهبــة ، ولكي يشغل المرء نفسه مــع اناس من وزن الاستاذ الاخــير ، آستاذ البلاغــة وحدة الــذهن الشعرية ، فيجب عليه ان يكون موهوبا ومزودا بطاقة رهيبة ضد السأم . وانا والحق يقال ، لا املك من هذه الطاقة الشيء الكثير . ولهذا السبب لم آرد عليك قبل الآن رغم تحديك المباشر .

قلت لنفسي: D'autres chats a'foutter
قطط اخرى اسوطها . واكون صادقا اذا قلت لك انني لم اكــن افتش عن عذر لتجنب خوض معركة جدل معك ، واعمالي تثبت ذلك ، وبالفعل فمنذ ان بدأت في تحديني ، كنت فعــلا ــ ومما يؤسف له ــ تحت تأثير ضرورة « سياط » بعض القطط . ولكنك فسرت صمتي ــ بالطبع ــ خلافا لذلك ، ومن آلواضح آنك ظننته

---

(١) فاسيلي تريدياكوفسكي (١٧٠٣ ــ ١٧٦٩) شاعر روسي وعالم لغات .

ان الشجاعة تعوزني لشن هجوم مباشر على معقلك الفلسفي ، مفضلا توجيه التهديدات الفارغة اليك وانتقادك **بدون رصيد** . وانا لا انكر عليك حق الغرور ولكنني ايضا لي حق القول بأنك كنت تخدع نفسك . ولقول الحقيقة فانني لا أعتقد وبكل بساطة انه من الضروري المجادلة معك ، واعتقد ان ممثلي الوعي الطبقي من البروليتاريين الروس سوف يكونون قادرين على تقييم **حدة ذهنك الفلسفي** ، وبالاضافة الى ذلك وكما قلت فانه لدي قطط اخرى اسوطها . وهكذا وبالعودة الى الوراء والى آخر عام١٩٠٧، ولنقل بعد ظهور رسالتك المفتوحة الي" في صحيفة الحياة ، فقد نصحني بعض رفاقي **بالتصرف معك** . ولكنني اجبت انه من الافضل التصرف مع السيد ارتورو لابريولا(١) الذي كانت افكاره منتشرة في روسيا بفضل صديقك المفكر السيد اناتولي لوناتشارسكي ، تحت ذريعة « سلاح حاد من اجل الماركسيين الكلاسيكيين» . وفضلت العمل بشأن ذلك مزودا بكتاب السيدين لوناتشارسكي ولابريولا اللذان فتحا الطريق امام النقابيةفيروسيا، وفضلت العمل بشأن ذلك ، وارجاء ردي مؤقتا على رسالتك المفتوحة ، ولاخبارك بالحقيقة ، فقد خفت ان اصاب بالسأم . ولم اقرر الرد عليك الا الان بعد ان رأيت يا سيد بوجدانوف ان الرد عليك ينطبق آيضا على رد للسيدين وخاصة اناتولي لوناتشارسكي . وفي الوقت الذي كنت تطور فيه تجريبيتك الاحادية وفقا لطريقة تريدياكوفسكي ولوناتشارسكي (الشيطان له اصبع في كل فطيرة) بدأت بالتبشير لدين جديد ، وكان يمكن

---

(١) ارتورولابريولا (Arturo labriola) اشتراكي ايطالي ، ارتد عن الماركسية ، قائد نقابي فوضوي ، ورجل سياسة واقتصاد .

ان تكون لهذا التبشير اهمية عملية اكثر من الدعاية لافكارك الفلسفية المزعومة . وفي الواقع فانني مثل انجلز اعتبر في الوقت الحالي «**ان كل الامكانيات من اجل اللاهوت قد استنفدت اقصى طاقاتها**» واتكلم على نحو صارم واقول ايضا **ان هذه الامكانيات استنفدت طاقتها فقط بالنسبة للوعي الطبقي البروليتاري** . وبالاضافة الى هذا الوعي يوجد اولئك الذين يعون والى حدٍ ما موقعهم الطبقي واولئك الذين لا يعونه تماما . وفي سياق تطور هذه القطاعات من الطبقة العاملة فان التبشير الديني يستطيع ان تكون له نتائج سلبية قوية . واخيرا وبغض النظر عن البروليتاريين الذين يعون والى حدٍ ما موقعهم الطبقي واولئك الذين لا يعونه على الاطلاق ، فاننا نملك وفرة كبيرة من «**المثقفين**» الذين يتصورون انفسهم واعين لموقعهم ، غير انهم في الحقيقة **وبلا شعور** مفتونين بكل تيار عصري في الوقت الراهن (قال غوتيه (١) **ان كل العهود الرجعية ذاتية**) وهم ميالون الى اعتناق كل ضروب التصوف . والاشياء المبتدعة كالدين الجديد لصاحبك المفكر ، يا سيدي العزيز ، الذي هو لقية حقيقية لهؤلاء الناس ، ويندفعون نحوه اندفاع الفراش نحو العسل . ان عددا لا بأس به من هؤلاء السادة يتمسك وبرغبة شديدة بكل شيء يقرأونه في آخر كتاب ولو لم يكن مضمون هذه الكتب يتفق او يخدم ارتباطهم بالبروليتاريا ومن وجهة النظر هذه ، قررت آننا نحن الماركسيين يجب ان نقدم ردا حازما ليس فقط على «**انجيل**» اناتولي الجديد ، بل ايضا ، وبأية حال ، على فلسفة ارنست ماخ الجديدة ، التي

---

(١) Johan wolfgany Goethe جوهان فولفغانغ غوتيه (١٨٣٤ – ١٩١٩) كاتب ومفكر ألماني

تتبناها يا سيد بوجدانوف . وأن هذا الرد سيكون لمصلحتنا نحن **الماركسيين** هنا في روسيا . ولهذا السبب وحده تعهدت بمهمة الرد عليك .

ادرك ان كثيرا من الرفاق كانوا مندهشين من انني لم اجد ضرورة للمجادلة معك قبل الآن . ولكن هذه قصة قديمة تظل ترتدي مسوحا جديداً . وحتى أثناء الوقت الذي نشر فيه السيد ستروف (١) كتابه الشهير **« ملاحظات نقدية »** فان بعض زملائي المفكرين ـ عدد قليل منهم ـ حكموا على أن هذه الملاحظات هي من عمل رجل ليس غريبا عن ميدان الفكر ! وهكذا نصحوني بالتصدي له ، ليس بغاية الاحتراب معه ، بل بغاية التوضيح . واصبحت هذه النصيحةاكثر الحاحا بعد ان نشر السيد ستروف مقالته « حول الحرية والضرورة » في
Voprosy Filosofei i psikhologii
واتذكر انه عندما قابلت لينين في صيف عام ١٩٠٠ فقد سألني لماذا لم افعل أي شيء بشأن مقالة ستروف ! وقد كان جوابي بسيطا جدا : أن الافكار التي عبر عنها السيد ستروف في مقالته « حول الحرية والضرورة » قد فندت سلفا ومن قبلي في كتابي **« دراسة حول تطور المفهوم الاحادي عن التاريخ »** . ان الخطأ الجديد الذي ارتكبه مؤلف **« الملاحظات النقدية »** يجب أن يكون واضحا لاي انسان قرأ كتابي هذا . كما انه ليس لديّ وقت لمناقشة هذا الموضوع مع اولئك الذين لم يقرأوا كتابي أو لم يدركوا ما ذهب اليه . ولا أعتبر نفسي مجبراً بأية حال وفيما

---

(١) بيوتر بيرنغاردوفيتش ستروف Pytor Berngardovich Struve (١٨٧٠ ـ ١٩٤٤) اقتصادي روسي بورجوازي وأحد نقاد ماركس .

يتعلق بمثقفينا الماركسيين لكي أؤدي دور بومة شيشدرين(١) التي حاولت بالحاح اقناع النسر تعليمه الكلام . في قصة شيشدرين أصيب النسر بالملل الى درجة كبيرة من البومة التي ما ملت التكرار من قول : « لتقل جلالتكم ا . ب . ت » . وبعد ان نفد صبر النسر صرخ بوجه البومة « دعيني وحيدا .. اللعنة عليك » . ثم قتلها فيما بعد . ولا اعرف فيما اذا كان دور البومة المعلمة بالنسبة للمثقفين الروس بشكل أو بآخر هو انعطاف هو ماركسي في الفكر يشكل اي خطر لي . ولكنني لا املك لا الرغبة ولا الفرصة لكي اوضع في مثل ذلك الدور العاق ، في حين ان لدي – وقبل كل شيء – مهاما عملية ونظرية .

وهل يفي بالغرض القول بأن القراء سوف يحبون مني التعبير عن رأيي بشأن القضايا الجنسية المعاصرة لنا .؟

وسألني آخرون ما هو رأيي برقص السيدة ايزادورا دونكان (٢) . والويل للكاتب الذي قرر أن « يرد » على كل النزوات الروحية لتلك السيدة المتقلبة المزاج والعصبية ،المثقفون الروس ! خذ اي وهم فلسفي من اوهام هذه ((السيدة)) اوليست منذ امد طويل وهي تعزف على قيثارة **كانت** ؟ ولكنها اوليست منذ امد طويل ايضا وهي تطلب منا ان نرد على نقد « الكانتيين » لماركس ؟ وفي الحقيقة فان هذه السيدة لمّا تتخلص بعد من الحذاء الذي ابلته في الركض في اعقاب الكانتيين الجدد . وجاء بعدكانت،

---

(١) شيشدرين (Shchedrin) هو اسم مستعار لميخائيل يفغرافوفينش Mikhail Yevgrafovich (١٨٢٦ – ١٨٨٩) كاتب وهجاء روسي .

(٢) ايزادورا دونكان (Isadora Duncan) (١٨٧٨ – ١٩٢٧) راقصة شهيرة قفزت بالرقص ورقته .

ماخ وافيناروس ثم جاء بعد هـذين البطلين في النقـد التجريبي جوزيف دايتزجن (Joseph Dietzgen) ثم جاء بعـده فـورا بوانكريـه (١) Henri Poincaré وبـرغسون (٢) « كليوباترا لها عشاق كثر » ، ودع جانبا اولئك الـذين سوف يشهرون السلاح ضدهم . وانا أقلهم رغبـة لفعل ذلـك ، لانني لا احمل ادنى ادعاء لمسيرة مثقفينا الحديثين الـذين ليسوا علـى اي حال بطلات لقصة حبي !

ولكـن لانني لا اعتبـر نفسي مجبراً للاحتراب مـع عشاق

---

(١) هنري بوانكريه (١٨٥٤ ـ ١٩١٢) فرنسي يذهب الى انه ليس للنظريات العلمية مايدعيه المذهب الواقعي من قيمة مطلقة ، ففي تطبيقها ولاسيما على الظواهر المستقبلة يوجد دائما امكان للتغير (نسبية العلم) وان النظرية العلمية قائمة دائما على قدر من الفرض وأن النظريات رموز مجردة يركبها العقل للتعبير عن العلاقات المشاهدة بين الظواهر وهو عالم رياضيات وطبيعي وفلسفته قريبة من فلسفة ماخ .

(٢) هنري برغسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) فرنسي . بدأ ماديا على مذهب سبنسر وفي عام ١٨٩٨ انكر قول الماديين بأن الحياة النفسية مؤلفة من ظـواهـر منفصلة تتصل بموجب قوانين التداعي ، وأن هذه الظواهر من قبيل الظواهر الخارجية قابلة للقياس والحساب . قال بأن الحياة النفسية تيار غير منقطع من الظواهر المتنوعة . أي، تقدم متصل من الكيفيات المتداخلة . الحياة النفسية كيف بحت مباين للكم وهي تلقائية تنبعث من باطن وخلق مستمر أو « **ديمومة** » على أن المادة متجانسة في جميع أجزائها موجودة بجميع أجزائها معا . وبرغسون ثنائـي يضع الروح والجسم الواحد بازاء الاخر . **والمعرفة الحقة حدس يدرك الموضوع في ذاته اما العقل فقد خلقه التيار الحيوي للعمل لا للنظر** . وهو من أصحاب وحدة الوجود (التيار الحي الخالق للروح والمادة) . **والواقع ان برغسون يدعي اقامـة ميتافيزيقا تجريبية مبدؤها ان كل موجود فهو بالضرورة موضوع تجربة حاصلة أو ممكنة .**

كليوباترا « تنا » الروسية العديدين ، فان ذلـك لا يستتبع انـه لاحق لي بابداء بعض الملاحظات العابرة بشأنهم ، لان هذا ايضا هو حق من حقوق كل انسان ومواطن غير قابـل للتجيير . انني لـم اشارك مثلا قط في نقـد العقيدة المسيحية الـلاهوتية . والارجح انني لن افعل ذلك ، ولكن هذا لا يحرمني مـن حق التعبير عـن رأيي بحق اي جزء من المنظومة اللاهوتية المسيحية عنـدما تحين الفرصة . فماذا تظن يا سيد بوجدانوف اذن بأولئك الذين كانوا موضع اشاراتي السابقة والمتعلقة بالمذهب الـلاهوتي المسيحي ـ الاشارات توجد على الارجح في كتاباتي ـ وقد بـدأوا باتهامي في انتقاد المسيحية سلفا ؟ واعتقد ان لديك ادراكا عاما لتهز كتفيك استهجانا لمثل هذه التهمة . ولذلك لا تندهش سيدي العزيز اذا كنت املك ادراكا عاما لا يقل عن ادراكك . واذا هـززت بالتالي كتفي استهجانا لـدى سماعي طريقتـك في التصـرف باشاراتي السابقة المتعلقة بالمذهب الماخي واتهامي بمادعوته المذهب النقدي .

في مطلع هذه الرسالـة ، ولكي اكـون على جانب الامـان ، استشهدت برأيك حول وجهة نظر ماركس الفلسفية . ذلك الرأي الذي لا يدع ادنى شك في اشد العقول غباوة ويكشف عن الموقع الذي تقف فيه فيما يتعلق بالفلسفة الماركسية . وانني اتـذكر الآن انه عندما ـ وفي الاجتماع الاخـير للروس في جنيف ـ لفت انتباهك في خطابي لمقالاتك تلك ، فقد كنت مسرورا ونهضت مـن مجلسك وصـرخت **« تلكـم هي طريقتي ، الطريقـة التي تعودت التفكير بهـا ، انني ادرك الآن انني كنت مخطئا »** . وكـان ذلـك تصريحا هاما جدا ، وانني مضطر ومعي كل قارىء مهتم باحترابنا الفلسفي الى قبول هذا التصريح على كـلا السبيلين ، كاعـلام

وارشاد ... ولو كان يتضمن فقط معنى منطقيا لانسان واحد يسترشد به كصوى على طريق وعثاء .

سرك فيما مضى ان تظن آن وجهة نظر انجلز الفلسفية كانت الوسيلة الذهبية ، ومع ذلك رفضتها لانهـا حسب زعمك غير صحيحة ! والآن لا يسرك آن تفكر هكذا . فماذا يعني هذا ؟ هل يعني إنك تعترف الآن بوجهة نظر انجاز وانها مرضية ؟ سأكون مسرورا جدا لسماع ذلك منك ، ولو كان ذلك يعني عدم تغلبي على سأم الاحتراب الفلسفي معك ! وما دمت قد فوّت عليّ هذه المسرّة ! ما دمت الآن قد اعلنت انك تغيرت من **ساول** الى باول . اي انك تخليت عن المذهب الماخي لتصبح ماديا جدليا ! اي على النقيض التام . ولكنك في كتابك الثالث لاحاديثك التجريبية اعربت بالضبط عن وجهات النظر الفلسفية ذاتها التي دافعت عنها في الكتاب الثاني ، والذي اقتبستُ منه الاستشادات التي تبرز خلافك التام في الرأي مع انجلز . فماذا تغير يا سيد بوجدانوف ؟

سأقول لك ماذا تبدل بالضبط . فعندما نشر كتابك الثاني من تجريبيتك الاحادية ـ ولم يكن ذلك في أيام غابرة بل كان في غام ١٩٠٥ ـ كنت ما تزال تملك الشجاعة لانتقاد انجلز وماركس اللذين لا تتفق معهما ، وما تزال ، لان هذا الاختلاف انما يجسد في الواقع الاختلاف الواقع بين المثالي والمادي . وكانت هذه الشجاعة طبعا بدون رصيد . واذا كان الانسان الذي يخاف من ادراك الحقيقة الماثلة امامه هو مفكر مسكين ، الا انه يظل اكثر سوءا منه ذلك المرء الذي يرى الحقيقة احيانا ويخاف من اعلام العالم انه رآها . ويظل اسوأ من هذين مجتمعين ذلك الانسان الذي يتكتم معتقداته الفلسفية لبعض المنافع . ومثل هذا المفكر ينتمي بكل

وضوح الى الانتهازيين المتنقلين من موقف لآخر . ودعني اكـرر ثانية يا سيد بوجدانوف بأن الجسارة التي ابديتها في اوائل عـام ١٩٠٥ كانت مأثرة لك . ولكـن مما يدعو للاسف والرثاء انـك فقدت ذلك بسرعة كبيرة .

لقد ادركت ان طرائقي كمـا تحب ان تدعوها ـ يمكـن في الحقيقة تقليلها وايجازها واعني انك احد ((**نقاد**)) ماركس ـ قد حققت (وكما تحب ان تقول) بعض النجاحات، اعني انماركسيينا المتطرفين قد توقفوا عن اعتبارك واحداً منهم او بالاختصار رفيقا لهم . وهذا ما روعك ، **ولذلك اشرعت جهدك وطرائقك الخاصة للاحتراب معي** . لقد قررت انك ستكون في احسن وضع للتراضي معي اذا اعلنت تأييدك لمؤسسي الاشتراكية العلمية وهكذا **اصبح انا بالتالي احد نقادهما** ! وبكلمات ثانية قررت ان تطبق «طريقة» وضع اللوم على ايما انسان آخر ، وتلك طريقة معروفة ان تجعل الآخرين شماعات لاخطائك . وبالاعتماد على هذا القـرار كتبت التحليل النقدي لنظريتي في المعرفة الذي نشرته في الكتاب الثالث الاحادية التجريبية والذي ـ وعلى الرغم مما قلتـه في الكتـاب الثاني ـ **لا تحتسبني فيه مـن مشايعي ماركس وانجلز** . لقـد خانتك شجاعتك يا سيد بوجدانوف . وانا ارثي لك . ولكننايجب ان نكون منصفين حتى لاولئك الذين تعوزهم الشجاعة . وبنـاء على ذلك اراني مضطراً للقول انـه على خـلاف عادتك ، فانـك اظهرت هذه المرة غباوة مطلقة ولعلك بهـذا تبز الـراهب الشهير غورنفلوت .

والفرنسيون يعرفون هـذا الراهب ويتندرون بحكايتـه في مجالسهم الخاصة . ولكنه من المحتمل الا يكون معروفا جيدا لدى الروس . ولذلك سأحكي بضع كلمات عنه .

ذات مرة ، ولا أذكر على وجه الخصوص اسم ذلك العيد عيد الصيام ، الذي سيطرت فيه على الراهب غورنفلوت رغبة شديدة في تناول وجبة فروج يسيل لها اللعاب . ولكن أكل الفروج في الصيام سيكون إثماً . فماذا يجب ان يفعل غورنفلوت من أجل ان يأكل الفروج ويتجنب في الوقت ذاته اقتراف الخطيئة؟ ووجد الراهب غورنفلوت وبعد لأي حلا بسيطا : لقد امسك بالفروج الشهي وأدى عليه شعائر الطقوس المسيحية مانحاً إياه اسم سمك الشبوط . والمعروف ان السمك (وهو طبق الصوم الكبير) غير محرم في ايام الصيام . وهكذا أكل راهبنا فروجه الشهي وعبر طقوس مسيحية على انه سمكة !

وانت يا سيد بوجدانوف عملت بالضبط الطريقة ذاتها التي انتهجها هذا الراهب الماكر . لقد صمت . وتابعت **الصيام** فيمايتعلق بالفلسفة المادية ((**اللاحادية التجريبية**)) ولكن ((**طرائقي**)) جعلتك تشعر بأن هذا كان خطيئة في أعين الماركسيين المتعصبين . ولذلك وبعد تفكير قصير بالقضية، قمت بانجاز الشعائر المقدسة المسيحية على « احاديتك التجريبية» **مانحا إياها اسم تعاليم ماركس وانجلز الفلسفية** ! حسنا لن يمنع الماركسيون المتعصبون مثل هذه **التغذية الروحية** ، ولذلك فقد تصرفت بها على كلا السبيلين . انت تابعت التمتع « بالاحادية التجريبية » واعتبرت نفسك بذات الوقت عضوا في اسرة الماركسيين المتعصبين . ولم تعتبر نفسك واحدا من تلك الاسرة فقط بل غضبت (او تظاهرت بالغضب) على اولئك الذين لا يرغبون في الاعتراف بك ((**كواحد منهم**)) . بالضبط مثل الراهب غورنفلوت . ولكن الراهب كان بارعا في امور صغيرة ، في حين أنك يا سيد بوجدانوف لم تظهر

براعة في امور كبيرة . ولهذا السبب أقول لك انك أشـد مكرا من ذلك الراهب الذي قل نظيره .

ولكن ، وا أسفاه ، ان الذكاء الحـاد لا جـدوى منه امام الحقائق . لقد استطاع الراهب ان **ينصرن** فروجه باسم سمكة ، ولكنه استمر في الوجود كفروج . وبالمشاهة يا سيد بوجـدانوف يمكنك ان تدعو مذهبك المثالي بالماركسية ولكن هذا لن يجعل منك ماديا جدليا . والاكثر اثارة انك طبقت **«طرائفك»** الجديدة بشكل جعل وجهة نظرك الفلسفية تتعارض كليا معمادية ماركس وانجلز الجدلية ، وكان الاكثر سوءاً في طرائفك هذه انهـا بينّت بوضوح انك غير قادر على فهم الملامح الرئيسية البارزة في هـذه التعاليم المادية .

ومن أجل التجرد فيجب ان يقال ، على أي حال ، ان المادية وبوجه عام ظلت بابا مغلقا امامك . وهنـا يكمن توضيح الاخطـاء التي لا تعد ولا تحصى والتي تضمنها نقدك لنظريتي في المعرفة .

وأورد هنا أحد هذه الاغلاط الكثيرة . في عام ١٩٠٥ تصفني كمريد لانجلز . ولكنك الآن تقر انني حواري لهولباخ(١) . فعلى اي اساس بنيت ذلك ؟ بنيت ذلك على اساس ان طرائفك الجديدة

---

(١) باول هنري هولبـاخ (Paul Henri Holbach) ١٧٢٣ – ١٧٨٩ فيلسوف الماني مادي عاش في باريس . اصطنع المادية المطلقة وكان له تأثير كبير . ذهب الى أن المادة متحركة بذاتها وان كل شيء يفسر بالمادة والحركة وأنهما أزليتان أبديتان . خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما . فليس العلم متروكا للصدفة . ولامدبراً باله ، وكل الادلة على وجود الله منقوضة ، ولاغائية في الطبيعة . ليست العين مصنوعة للرؤية ، ولاالقدم للمشي . ولكن المشي والرؤية نتيجتان لاجتماع أجزاء المادة . ولانفس في الانسان . ولكن الفكر وظيفة الدماغ . والفرق بـين العقول نتيجة الفرق بين الادمغة . ولاحرية ، فان القول بها انكار للنظامالكوني .

لم تقدك للاعتراف بي كماركسي . ليس لديك سبب آخر ! كما انه ليس لديك سبب لتنعتني بأنني حواري لهولباخ . وبغض النظر عن حاجتك لاقتفاء خطى الراهب غورنفلوت ، فقد كشفت فورا عن موقفك الواهن وعن عجزك الكامل فيما يتعلق بالقضايا النظرية للمذهب المادي . وبالفعل ولو انك هززت رأسك متعارفا بتاريخ المذهب المادي فانك سوف تتأكد انه لا توجد صحة في وصفك اياي كهولباخي . وما دمت مصراً على وصفي كهولباخي فيما يتعلق بنظرية المعرفة التي أدافع عنها ، فانني لا اعتقد انه سيكون من المغنم لي اعلامك بأن هذه النظرية تضم تشابها كبيرا لتعاليم بريستلي (١) Priestley اكثر من هولباخ . ان وجهة النظر الفلسفية التي اعتنقها هي اكثر بعداً عن تعاليم هولباخ وأبعد من ان تكون كتعاليم هلفسيوس (٢) Helvétius ، بل واكثر

---

(١) جوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣ – ١٠٨٤) فيلسوف انكليزي مادي وكيميائي . اكتشف غاز الاوكسجين وكان لاهوتيا مؤمنا بالله وبالمسيحية ولو أنه عارض عقيدة الثالوث . ومع ذلك انحاز الى نظرية هارتلي .. ولم يكن هذا الجمع بين الايمان والمادة شاذا عند الماديين الانكليز . وقد حشد بريستلي في كتابه « بحوث في المادة والروح » أدلة الماديين المتقدمين والمتأخرين يقول: **ليس لدينا معنى واحد الا وقد جاء عن طريق الاحساس أي عن طريق الجسم .** يسمى مذهبه بالمادية ولكنه يعتقد أن ماهية المادة القوة ، قوة جاذبة ودافعة . وأنه يجب تصور الذرات بمثابة « نقط قوة » وأن الصلابة كيفية محسوسة لاتعبر عن ماهية المادة بل عن فعل هذه المادة في الحس .

(٢) كلود آدرين هلفسيوس Claude Adrien Helvétius (١٧١٥ – ١٧٧١) فيلسوف مادي فرنسي ينكر وجود الله . معروف بمحاولة للانتقال من الانانية الى الغيرية في الاخلاق . ويقول ان من واجب المصلحين أن يحملوا كل شخص على أن يرى منفعته الذاتية في منفعة الغير . ويقول ان الانسان الحقيق

بعدا عن تعاليم لامتري (١) La Mettrie ايضا . والمطلع على اعمال هذا الاخيرسوف يقدر ذلك بسهولة. ولكن المعضلة هي انك لاتعرف شيئا عن اعمال لامتري اوهلفسيوس أوبريستلي ، وانك لا تعرف شيئا عن هولباخ نفسه الذي صنفتني بين مريديه بعد ان نبذتني من مدرسة ماركس وانجلز ، وعلى الارجح بسبب تقدمي البطيء في فهم المادية الجدلية !! نعم ، تلكم هي القضيـــة المعضلة ، انك لا تعرف اي شيء اطلاقا عن المادية . لا تاريخها ولا ما هي عليـه اليوم. وليست هذه القضية هي معضلتك فقط يا سيد بوجدانوف، بل انها المعضلة القديمة ، قصة اولئك الذين لا يعرفـون شيئا عن المادية ومع ذلك يدعون الحق بالتكلم ضدها والاحتراب معهـا . وبالتأكيد ان هذا يتفق مع حقد الطبقات الحاكمة .

بهذا الاسم يجد لذته أي منفعته في سعادة الاخرين .

انظر محاولاته الشهيرة للتفسير المادي للتاريخ التي أشرت اليها في الطبعـة الثانية من كتابي Beiträge zur Geschichte des Materialismus (مقالات حول تاريخ المادية) .

(١) دي لامتري De la Mettrie (١٧٠٩ - ١٧٥١) مادي معروف نشر أصول مذهبه في كتاب اسماه « التاريخ الطبيعي للنفس » (١٧٤٥) وتوسع في شرح هذه الاصول في كتاب عنوانه « الانسان الة » (١٧٤٨) يقول لامتري : اذا كان الحيوان يحس ويدرك ويذكر ويضاهي ويحكم ويريد بفضل تركيبه المادي فحسب، فما الداعي لوضع نفس روحية في الانسان وهو يأتي عين تلك الافعال . ولاتختلف أفعاله عن أفعال الحيوان الا بالدرجة ؟ ويختار لامتري من ثنائية ديكارت الرقعة المادية ويستغني عن نفس متمايزة من الجسم متحيزة في نقطة منه أو فيه كله فيرد الحياة النفسية الى الحياة الجسمية بحيث يكفي تركيب الاعضاء للادراك ، وتؤثر البيئة والغذاء والتربية في المزاج ويؤثر المزاج في الخلق .

انت ارسلتني الى مدرسة مؤلف نظام الطبيعة(١) Systéme de la nature على اساس انني واقتبس كلماتك الخاصة، قدمت المذهب المادي باسم ماركس وبمعونة اقتباسات من هولباخ . ولكن اولا . هولباخ ليس هو المؤلف الوحيد الذي استشهدت به في مقالاتي الفلسفية . وثانيا : وهذه هي النقطة الهامة ، انك لم تفهم اطلاقا لماذا استشهدت بهولباخ مرارا وبباقي الممثلين الآخرين للمذهب المادي في القرن الثامن عشر . لم افعل ذلك على اية حال بهدف نشر وجهات نظر ماركس ، كما تود ان يعتقد كل امرىء ، ولكنني فعلت ذلك بهدف الدفاع عن المذهب المادي امام تلك العيوب السخيفة التي قدمت **ضده** من قبل خصومه بشكل عام ، ومن قبل الكانتيين الجدد بصورة خاصة .

وعندما يقول لنجى (٢) Lange في كتابه الفث « تاريخ المادية » مثلا : « بأن المذهب المادي يتمسك بعناد بعالم الظواهر المحسوسة كعالم من الامور الواقعية » اعتبر ان من واجبي التبيان بأن لنجى يشوه الحقيقة التاريخية ، وبما انه يورد هذا الرأي وعلى وجه الدقة في فصل حول هولباخ من اجل فضحه ، فقد كان لزاما عليّ أن أستشهد بهولباخ ، اعني أن هولباخ هو من اكثر المؤلفين الذين حرّف لهم لنجى وجهات نظرهم . ولنفس السبب تقريبا ، كان يجب عليّ الاستشهاد بأقوال مؤلف نظام الطبيعة Systéme de la nature في جدالي مع السيد بن بيرنشتاين ،

---

(١) هولباخ : الاحادية التجريبية . الكتاب الثالث المقدمة ص ١٠ - ١١ .

(٢) فريدريك ألبرت لنجى Friedrich Albert Lange (١٨٢٨ - ١٨٧٥) فيلسوف ألماني ، كانتي جديد ، له كتاب في تاريخ المادية (١٨٦٦) « يعتبر مرجعا في تاريخ الفلسفة » ! وهو معروف بنظرية في الانفعالات قريبة من نظرية وليم جيمس ومذكورة في كتب علم النفس . أيد المادية التطورية .

و س . شميدت اللـذان تكلما وبكثير من الهـراء حـول المذهب المادي . وكان يجب عليّ تبيان مدى رداءة فهمهما للموضوع الذي اخذا على عاتقهما الحكم عليه . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كنت في حججي معهما مرغما لا بذكر هولباخ فقط ، بل لامتري وهلفسيوس ايضا وخصوصا ديدرو(١) Diderot . وبالواقع ، فـان جميع هؤلاء الكتاب هم ممثلون للمذهب المادي في القـرن الثامن عشر . ولذلك فان أي امرىء غير حسن الاطلاع على الموضوع ربما يسأل نفسه : لماذا يستشهد بليخانوف وعلى وجـه الخصوص بماديي القرن الثامن عشر ؟ لدي جواب بسيط على هذا السؤال وهو : فعلت ذلك لان خصوم المذهب المادي ومنهم على سبيل المثال لنجي نفسه يعتبر أن القرن الثامن عشر هو فترة الازدهار العظيمة لتلك التعاليم . كما يشير لنجي بصورة مباشرة الى المذهب المادي للقرن القرن الثامن عشر ؟ لدي جواب بسيط على هذا السؤال وهو . الجوزة سهل كسرها للغاية . ولكن كونـك متمرس « بطرائق » الراهب الخبيث غورنفلوت فأنت لا تريد كسر الجوزة ولكنك تريد الاحتفاظ بها كاملة ما دام كسرها ليس من مصلحتك . ولكن هل تعرف هذا ؟ عندما يجهد المرء نفسه في تعميـة تفسيرات بسيطة

---

(٢) دينيس ديدرو Denis Didrot (١٧١٣ - ١٧٨٤) فيلسوف مادي فرنسي . بدأ حياته القلمية بالترجمة عن الانكليزية . نشر خواطر فلسفية أعرب فيها عن آراء مخالفة للدين ، فحبس بسببها ستة أشهر (١٧٤٩) ونشر كتبا أخرى تدرج فيها من المذهب الطبيعي القائل بوجود الله والمنكر للعناية الالهية الـى الاحادية المادية الزاعمة ان المادة حية بذاتها ، وأن الاحياء تتطور ابتداء من خليـة تحدثها المادة الحية بحيث تحدث الاعضاء الحاجات وتحدث الحاجات الاعضاء . عمل على اصدار موسوعة كانت محل هجوم كبير من جانب المتدينين واشترك معه في اصدار تلك الموسوعة (١٧ مجلدا) فولتير وروسو .

واضحة فانه يحتاج للاغتراف من بئر سفطة وان السفطائي كما قال هيغل يحتاج على الاقل لبعض المهارة في التعامل مع الافكار . وبقدر ما انت معني، وهما حاولت تقليد غورنفلوت الماهر فمازالت بينك وبين امتلاك مهارة كمهارته أشواط بعيدة . ولهذا السبب فان سفسطاتك خرقاء الى حد بعيد . وهذا امر كثير الضرر لك . ذلكم انك كل مرة تحتاج لمزيد من السفسطة . وتحدوني رغبة عارمة لازجاء نصيحة لك بالعودة الى السيد لوناتشارسكي مادامت سفسطاته اكثر ملاءمة للنقد وسهلة الوقع على الآخرين . **الا ان الفارق في السفسطة يظل فارق درجة** . ولكنني اعرف ان هناك متعة كبيرة في فضح سفسطات لونا تشارسكي الانيقة أكثر من **نبش أكوام** سفسطاتك يا سيد بوجدانوف .

لا استطيع القول فيما اذا كنت ستقبل نصيحتي الصادرة عن نية حسنة والتي تتعارض مع موقفك ، ذلك انك اقدمت وبغير نزاهة على تلفيق سفسطة غير ملاءمة فيما يتعلق بشخصي . الا انني مرة ثانية اجهد نفسي للم شعث قواي لمقاومة السأم من اجل فضح تلفيقاتك الصارخة .

بتصنيفك اياي ضمن مريدي هولباخ ، فانك تريد تشويه سمعتي امام ناظري قرائك . ففي مقدمتك للترجمة الروسية لكتاب ماخ « تحليل الاحاسيس » تقول (وكمساواة لفلسفة ماخ) أنني ورفاقي نقدم « العلم الطبيعي كما صاغه بارون هولباخ كفلسفة للقرن الثامن عشر ، وان العقائديين البورجوازيين الانقياء انتقلوا ومنذ زمن بعيد ايضا من مواقع تأييد الاشتراكية المعتدلة لارنست ماخ » . وهنا نكتشف سرا بكل عريه البشع، ألا وهو جهلك اللامعقول للموضوع وسخافتك المضحكة وغير العادية في « **التعامل**

مع الافكار » .

وبالفعل فان بارون هولباخ قد انتقل ومنذ زمن بعيد من مواقع تأييد الاشتراكية المعتدلة لماخ . ولماذا لا يكون كذلك ؟ لقد تخلى عنهم منذ مئة وخمسين عاما تقريبا ! وفي الحقيقة ، فان المرء يجب ان يكون حفيدا نبيلا لتريد اكوفسكي كي يلقي اللوم على هولباخ او على أي مفكر صديق له في القرن الثامن عشر بسبب ذلك ! وبالتأكيد لم تكن رغبته الخاصة (**هولباخ**) ان يأتي زمنيا بعد ماخ ! واذا كنا سنتجادل بهذه الطريقة فيمكننا اذن لوم كليشنيس (١) مثلا لانه « انتقل منذ أمد بعيد » من اشتراكية السيد برنشتاين الانتهازية ! لكل أوان خضاره يا سيد بوجدانوف . ولكن في طبقة المجتمع ، ففي أي وقت معطى توجد وفرة من الخضارة الفلسفية على ارض الاله ، وينتقي الناس فلسفة عفوا خضـ .. أو اخرى مما يلائم ذوقهم . ولقد كان **فختي** Fichte على حق عندما قال « **لكي تعرف إنساناً فاعرف فلسفته** » وبناء على ذلك ، يبدو لي أن تعاطف السيد بوجدانوف ــ الذي لا شك فيه بل والذي يصل لدرجة التطرف ــ مع الاشتراكية المعتدلة لارنست ماخ هو أمر غريب جدا .

وحتى الآن فقد افترضت ان السيد بوجدانوف لم يكن عاجزا فقط عن التعاطف مع أي نوع من « الاشتراكية المعتدلة » بل انه وكأنسان من نمط « **متطرف** » في التفكير ، فانه سيكون اكثر ميلا الى تصنيف هذه الانواع من الاشتراكية ، كأنواع انتهازية غير جديرة بعصرنا . والآن أرى أنني كنت مخطئا ، وأدركت لماذا كنت مخطئا . لقد نسيت للحظة واحدة ان السيد

(١) كليشنيس Cleisthenes (من القرن السادس قبل الميلاد) رجل دولة قانوني .

بوجدانوف هو أحد « نقاد ماركس » . ولم يقلْ عبثاً : « اربط براثن الديك يخسر المعركة » . لقد بدأ السيد بوجدانوف برفض المذهب المادي الجدلي وانتهى بتأييد واضح بل ومتطرف « للاشتراكية المعتدلة » لماخ ، وذلك امر طبيعي . « فمن يقل « أ » يجب ان يقول « ب » » .

« wer a sagt, muss auch b sagen »

أن يكون هولباخ بارونا ، فتلك حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل ، ولكن لماذا يا سيد بوجدانوف تذكرّ قراءك بمرتبة هولباخ البارونية ؟ يجب ان نفترض انك فعلت هذا لشغفك بالالقاب ولانك وببساطة تريد ان تعلمنا ، نحن المدافعين عن المادية الجدلية ، كوننا تلاميذ مزعومين لبارون . حسنا ، أنت مذهل **بفعلتك** تلك ، ولكن ابان محاولتك توبيخنا لا يغرب عن بالك ايها السيد المبجل ، انك لا تستطيع الحصول على جلدين من ثور واحد . أنت نفسك قلت ان البارون هولباخ كان من انقى ايديولوجيي البورجوازية ، ومن الواضح بناء لذلك ، ان لقبه الباروني ليست له اهمية اطلاقا في تقرير التعادل الاجتماعي لفلسفته . والسؤال الشامل هو : ما هو الدور الذي لعبته هذه الفلسفة في عصرها فعلا ؟ لقد لعبت هذه الفلسفة في عصرها دوراً ثوريا هاما يمكنك معرفته من مصادر عامة وعديدة هي في متناول اليد ، ومن بينها (والشيء بالشيء يذكر) انجلز الذي وصف الثورة الفلسفية الفرنسية في القرن الثامن عشر فقال : « **كان الفرنسيون في احتراب مكشوف ضد كل علم رسمي ، ضد الكنيسة ، وفي احوال كثيرة ضد الدولة ، وكانت تطبع كتاباتهم عبر الحدود ، في هولندا او انكلترا ، بينما كانوا هم انفسهم (وكثيرا ما كانوا) معرضين لخطر السجن مدى الحياة في**

الباستيل »[1] . ولك ان تصدقني يا سيدي العزيز عندما اقول لك ان هولباخ كان من بين هؤلاء الكتاب الثوريين ، مثله مثل باقي ماديي تلك المرحلة . والاكثر من ذلك انه يجب ان تلاحظ ما يلي :

كان هولباخ والماديون الفرنسيون بصورة عامة في ذلك الوقت عقائديين ولكن ليس بذلك القدر الـذي يمكن ان يكونـوا فيـه عقائديين لبورجوازية الملكية الثالثة . وإبان تلك الحقبة التاريخية عندما كانت هذه الملكية الثالثة وبصورة شاملة متشربة ــ وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ــ بالروح الثورية فقد أقام الماديون الجناح اليساري للجيش العقائـدي للملكيـة الثالثـة . وعندما انقسمت الملكية الثالثة انبثق منها وتباعا البورجوازية من جهـة اولى والبروليتاريا من جهة ثانية . ولقـد جعـل الايديولوجيون البروليتاريون نقطة انطلاقهم تعاليـم الماديين بحرفيتها ، لانهـا كانت العقيدة الفلسفية الثورية المتطرفة في عصرهـا . واصبـح المذهب المادي اساسا للاشتراكية والشيوعية . وقد اشار ماركس الى هذا في كتـابه (العائلة المقدسـة) Die heilige familie وكتب فيه :

« بقليل من التعمق ندرك ان تعاليم المذهب المادي الفرنسي على اساس تساوي الخير الاصلي والموهبة العقلية بين البشـر ، والقدرة الكلية للتجربة، والعادة والتربية وتأثير البيئة على الانسان والاهمية العظمى للصناعة والترشيد الخلقي للمتعة ، الى آخـر ذلـك ، علـى اساس ذلـك كلـه تبدو ضرورة تـرابط المذهب المادي مع الشيوعية والاشتراكية » .

ويستطرد ماركس في التعليق الى «أن الاتجاهات الاشتراكية

---

(١) لودفيغ فيورباخ . س . بترسبورغ . ١٩٠٦ ص ٣٠ (الاعمال المختارة ماركس وانجلز ــ المجلد ٣ موسكو ١٩٧٠ ص ٣٣٧) .

للمذهب المادي توضح بشكل جيد في اعمال مثل Fable of the Bees (حكاية النحل) بقلم برنارد مانديفيل احد اتباع لوك الاوائل الذي يبرهن على ان الشوائب في المجتمع الحديث امر لازب ومفيد .

وماركس مصيب ، فليس المطلوب من المرء ان يكون عقلانيا ممتازا لكي يفهم الترابط الضروري بين المذهب المادي والاشتراكية ، ولكنه على اي حال يتطلب في الواقع قليلا من الذكاء . وهذا هو السبب في ان اولئك « النقاد » الذين كانوا لا يتمتعون بهذا القسط اليسير من الذكاء غير مدركين لهذا الترابط الذي بيّنه ماركس ، وظنوا مخطئين انهم قادرون على ايجاد مبادىء جديدة تكون « اسسا » للاشتراكية ، في الوقت الذي هم فيه يحتربون مع المذهب المادي ! والاكثر من ذلك فان اولئك الذين يؤيدون الاشتراكية وهم غير مدركين جوهرها الحقيقي لنقص في امكاناتهم العقلية نراهم مستعدين لاعتناق اية فلسفة ما عدا الفلسفة المادية . وهذا هو السبب لتفوههم بترهات يتعذر تبريرها او اغتفارها عندما يبدأون باطلاق احكام معيارية على المذهب المادي .

وانت ايضا يا سيدي العزيز لم تلاحظ ضرورة الترابط بين المذهب المادي والاشتراكية فلماذا ؟ سأترك للقارىء الاجابة على هذا السؤال . ولكنني سوف اتولى بنفسي تذكيرك كيف وبختنا نحن الماركسيين لنشرنا افكار المذهب المادي الفرنسي ، لان ذلك الفعل لا يتطابق في نظرك مع مهام الدعاية الاشتراكية الحديثة !

---

(٣٦) برنارد مانديفيل Bernard Mandeville (١٦٧٠ – ١٧٧٣) كاتب انكليزي .

(٢) جون لوك John Locke (١٦٣٢ – ١٧٠٤) فيلسوف مادي أخلاقي انكليزي .

وتظهر هنا ايضا انك على خلاف تام مع مؤسسي الاشتراكية العلمية.

اشار ماركس وانجلز وبقناعة في مقال : برنامج لاجئي كومونة البلانكيين Programm der blankistischen kommune flüchtlinge الذي نشر اصلا في العدد رقم ٧٣ من صحيفة دولة الشعب Voolksstaat في عام ١٨٧٤ واعيد نشره مؤخرا في مجموعة الامور الامية من دولة الشعب« aus dem « voolksstaat internationales الى ان العمال الديمقراطيين الالمان لا يؤمنون بأمور غيبية .

Sind mit goott einfach fertig

وانهم يعيشون ويفكرون كماديين . وعلق انجلز في الصفحة ٤٤ من المجموعة المشار اليها اعلاه الى ان هذا الواقع يحمل في جميع احتمالاته ايضا حقيقة ما يتم في فرنسا ويشترط ماركس « اذا لم يكن الامر كذلك . فلن يكون هناك شيء ابسط من تنظيم التوزيع الجماهيري بين العمال الفرنسيين للادب الفرنسي المادي الممتاز في القرن الاخير (وهذا يعني القرن الثامن عشر يا سيد بوجدانوف) ذلك الادب الذي حققت فيه الروح الفرنسية تعبيرها السامي فيما يتعلق بكلا الشكل والمضمون والذي يعتبر حتى اليوم على مستوى عال فيما يختص بالمضمون ، وذلك باعتبار مستوى العلم آنذاك ، وما يزال فريدا من نوعه من حيث الشكل .

وكما ترى يا سيد بوجدانوف فان انجلز لم يكن خائفا من نشر « فلسفة العلم الطبيعي » بين اوساط البروليتاريين التي تحب ان تدعوها فلسفة « انقى عقائدي البورجوازية » بل على العكس من هذا فقد اوصى انجلز بنشر افكارها مباشرة وعلى مدى واسع بين اوساط العمال الفرنسيين الذين لم يصبحوا آنذاك ماديين . ونعتبر نحن اتباع ماركس وانجلز نشر هذه الافكار بين

الآخرين وفي صفوف البروليتاريين الروس ممثلي الوعي الطبقي عملا جديرا بالاهتمام ويستحق العناء المبذول من اجله . ولكن لسوء الحظ لم يقبل الجميع على اية حال وجهة نظر المادية . واننا نعتبر هذه المهمة - مهمة نشر الافكار - مفيدة ، وقبل سنتين نويت نشر سلسلة كتب من الادب المادي باللغة الروسية ، وكنت مزمعا على احلال اعمال الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر في المكان الاول من تلك السلسلة ، لان تلك الاعمال في الحقيقة لا تضاهي سواء في الشكل او حتى في مضمونها البناء . وعلى اي حال لم ينجز اي شيء من ذلك . ومن السهل جدا ان تعثر في روسيا على سوق لاعمال تلك المدارس المتعددة من الفلسفة المعاصرة التي ادرجها انجلز تحت اسم يرشح بالازدراء «قصعة حساء الشحاذين » من المذاهب الانتقائية (التخيرية)(١) اكثر من العثور على ادبيات مخصصة للمذهب المادي . والمثل الواضح لهذا هو المبيعات الضئيلة من كتاب لودفيع فيورباخ لانجلز الذي ترجمته الى الروسية . وهو كتاب شيق . وجمهورنا القارىء في هذه الايام - على اي حال - غير مبال بالمذهب المادي . ولكن لا تبتهج يا سيد بوجدانوف . ان لا مبالاة جمهورنا القارىء ازاء المذهب المادي هي علامة سيئة ما دامت تعني انه مستمر بارتداء

---

(١) الانتقائية (التخيرية) Eclecticism

١ - يقال هذا الاصطلاح على مدرسة الاسكندرية .

٢ - أطلقه فيكتور كوزان على مذهبه وهو يرمي الى استخلاص مافي كل مذهب من وجه حق اذ ليس كل مذهب حقا بالاطلاق ولاباطلا بالاطلاق .

٣ - يجب التمييز بين التخيرية والتلفيقية التي تهدف الى الجمع بين المذاهب المتعارضة بلاروح نقدية بينما التخيرية تستند الى ضرورة النقد لاسقاط العناصر الباطلة في كل مذهب .

ضفائره التقليدية ، وحتى في مثل هذه العهود عندما يكون جمهور قرائنا بحد ذاته معبئا على ما يبدو ببحوث نظرية متقدمةوجريئة. ولسوء الطالع التاريخي للفكر الروسي المسكين فانـه في لحظات الاندفاع الثوري العظيم نادرا مـا استطاع ان يهـز نفوذ الفكـر البورجوازي الغربي الذي لا يعدو ان يكون فكراً محافظا من وجهة نظر العلاقات الاجتماعية السائدة الآن في الغرب .

قال لاهـارب(١) La Harpe (المرتد عن حركـة التحرير الفرنسية في القرن الثامن عشر) في كتابه (دحض كتاب العقـل)
Réfutation du livre de l'esprit
انه عندما قدم تفنيده لآراء هلفسيوس ، فان نقده لم يلـق ايـة ردود فعل بين الفرنسيين ، وقال فيما بعد ، انهم بدأوا باتخاذ اتجاه مغاير كلي له . وبيّن لاهارب نفسه اسباب ذلك بواقع ان جهده الاول قد بذل في مرحلة سابقة للفترة الثورية ، في وقت لم تكن لدى الشعب الفرنسي الفرصة ليرى عمليا النتائج الخطـيرة الناجمة عن انتشار وجهات نظر المذهب المادي . ففي هذه الحالة كان المرتد على صواب . فتاريخ الفلسفة الفرنسية بعد الثـورة الكبرى لا يبين بوضوح بأن خصائص اتجاهاتـه المضادة للماديـة كانت متأصلة الجذور في غرائز الحفظ الذاتي للبورجوازيـــة ، التي كانت تتماشى بشكل ما مع النظام القديم ومن ثم تخلت عن انتمائها الثوري السابق واصبحت محافظة . وهذا بدرجة اكثر او اقل قابل للتطبيق بالنسبة لبلدان اخرى بالاضافة الى فرنسا. ومن السذاجة التامة فعلا أن لا ترى كم كان هناك نفاق جبان في المحتوى السطحي للعقائديين البورجوازيين المعاصرين اينما كانوا

---

(١) جان فرانسيس دولاهارب François de la Harpe (١٧٣٩-١٨٠٣) روائي وناقد فرنسي .

في تقييمهم للمذهب المادي . أن البورجوازية تخشى المذهب المادي كعقيدة ثورية ، سوف تبدد من عيون الطبقة البروليتارية العمى اللاهوتي الذي بواسطته تريد البورجوازية ابقاء الطبقة البروليتارية جاهلة ، وهي بذلك تعيق نموها الروحي . وقد بيّن انجلز نفسه ، احسن من اي انسان آخر ، حقيقة هذا في المقال حول المادية التاريخية[1] Über historischen Materialismus الذي نشر في العددين الاول والثاني من العصر الحديث Neue zeit بين عامي ١٩٨٢ — ١٨٩٣ ، والذي ظهر اصلا بشكل مقدمةللطبعة الانكليزية في الكتيب الشهير : « الاشتراكية بين الطوبائية والعلمية » . وخاطب انجلز القارىء البريطاني مزودا اياه بالشرح المادي للحقيقة القائلة بأنالايديولوجيين البورجوازيين البريطانيين لا يحبون المذهب المادي .

---

(1) Die neu zeit

مجلة نظرية للاشتراكية الديموقراطية الالمانية صدرت في شتوتغارت من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٢٣ . كان كوتسكي رئيس تحريرها حتى تشرين الاول من عام ١٩١٧ . وقد حل محله هـ . كونو H. Cunow وفي هذه المجلة نشرت لاول مرة بعض كتابات ماركس وانجلز : نقد برنامج غوتا لكارل ماركس ، ومساهمة في نقد مشروع منهاج الحزبالاشتراكي ـ الديموقراطيلانجلز ، الخ. قدساعدانجلزبنصائحه هيئة تحرير المجلة وغالبا ماانتقد انحرافاتها عن الماركسية . ولقد أسهم في هذه المجلة مناضلون في الحركة العالمية الالمانية والدولية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين منهم أ. بيبل (Bebel)وليبكنخت (Leibknecht) وروزا لوكسمبورغ و ف. مهرنغ وكلارا زتكين **وبليخانوف** ولافارغ وغيرهم .وابتداء من النصف الثاني للتسعينيات بعد وفاة انجلز أصدرت المجلة بصورة منهجية مقالات للتحريفيين بضمنها سلسلة من المقالات لبرنشتاين بعنوان : « قضايا الاشتراكية » افتتح بها هجوم التحريفيين على الماركسية . شغلت المجلة أثناء الحرب العالمية الاولى وضعا وسطا ، دعمه عمليا الاشتراكيين ـ الشوفينيين .

وبيّن انجلز ان المذهب المادي ، الذي كان اولا عقيدة ارستوقراطية في انكلترا وفي فرنسا فيما بعد ، قد اصبح فورا عقيدة ثورية في البلد الاخير . « الى حد انه عندما نشبت الثورة الكبرى ، فان العقيدة التي احتضنها الملكيون الانكليز قدمت رايتها النظرية الى الجمهوريين والارهابيين الفرنسيين ، وجهزت النص لاعلان حقوق الانسان » . ويضيف انجلز « وهكذا فلو اصبح المذهب المادي هو قانون الايمان المسيحي فان البورجوازيين الانكليز الذين يخافون الله سوف يسرعون بأقصى طاقتهم للانضواء تحته ، واحداث باريس برهنت ماذا كان يمكن ان تكون النتيجة لو لا الغرائز الدينية ! وبمقدار ما انتشر المذهب المادي من فرنسا الى البلدان المجاورة وعزّز من قبل تيارات عقائدية مشابهة له .. كلما اصبح - في الحقيقة - المذهب المادي والفكر الحر بصورة عامة من المتطلبات الضرورية للانسان المتمدن في القارة ، وكلما اصبحت الطبقة الوسطى الانكليزية اكثر عنادا في التصاقها بقوانينها الدينية المتعددة الوجوه . وقد تختلف هذه القوانين بعضها عن بعض الا انها تتمتع كلها بميزة دينية واحدة تلكم هي انها قوانين مسيحية» .

لقد اقنع التاريخ الداخلي اللاحق لاوروبا بصراع الطبقات والثورات البروليتارية المسلحة ، البورجوازية البريطانية اكثر من اي وقت مضى بحاجة الحفاظ على الفكر الغيبي كشكيمة تحد من اندفاع الجماهير . والآن بدأ هذا المعتقد يصبح قاسما مشتركا بين كل البورجوازية الاوروبية وقال انجلز ان الخوف يزداد يوما بعد يوم . ولم يبق للبورجوازية الفرنسية والالمانية كملجأ سوى التخلي بصمت عن فكرها الحر ... وتحول اللامتدينون الواحد تلو الآخر الى متدينين ، واصبحوا يتكلمون

باحترام عن الكنيسة وعقائدها وطقوسها . حتى انهم ارهقوا انفسهم في طاعتها . واصبح البورجوازيون الفرنسيون يتناولون غداء أيام الجمعة . أما البورجوازيون الالمان فأصبحوا يحضرون الاحتفالات الدينية البروتستانية في مقاصيرهم الكنسية ايام الاحد ، واصبحوا على خصام مع المذهب المادي . وكانت الوسيلة الوحيدة والاخيرة لانقاذ المجتمع من الدمار الكامل « ان يبقى اللاهوت حياً من اجل الشعب » !! .

Die religion muss dem volk erhaken werden.

وبدأت بعدئذٍ (واضيف على مسؤوليتي) – وفي ان واحد مع العودة الى كانت – ردة الفعل ضد المذهب المادي ، هذه الردة التي ما تزال تميّز اتجاه الفكر الاوروبي عموما والفلسفة بشكل خاص . ويشير البورجوازيون التائبون – وربما كان ذلك نفاقا – الى ردة الفعل هذه على انها افضل برهان على نجاح « النقد » الفلسفي . ولكننا نحن الماركسيين الذين نعرف ان وجهة تطور الفكر تقررها وجهة تطور الحياة لا يمكن ان نخدع بسهولة بمثل هذه التأكيدات المنافقة كثرت ام قلت . ونحن قادرون على تعريف التعادل الاجتماعي لردة الفعل هذه . ونعرف أن سببها كان ظهور البروليتاريا الثورية على مسرح التاريخ الدولي . ونظراً لأنه ليس لدينا ما نخشاه من البروليتاريا الثورية ، بل على العكس اننا نعتبره شرفا لنا ان نكون من مناصريه (المذهب المادي) فنحن لا نعلن ارتدادنا عن المذهب المادي بل نذود عنه بالفعل ضد «النقد» الجبان والمنحاز لأولئك البورجوازيين مدعيّ المعرفة والحكمة .

وهناك سبب آخر لتحول البورجوازية بعيداً عن المذهب المادي وهو سبب له بمحض المصادفة ايضا جذوره في نفسية البورجوازية كطبقة حاكمة في المجتمع الراسمالي الحديث . وتميل

كل طبقة تحوز على السلطة الى « الرضى » وإن البورجوازيــة التي تحكم مجتمعا يرتكز على التنافس المرير بين منتجى السلع ، من الطبيعي ان تميل الى الرضى النفسي الذي لا يوجد فيه اثر للغيرية . ان « الانا » الاثيرة عند كل ممثل نبيل للبورجوازيــة تحتل تماما كل مطامحه ومخططاته. وتؤكد البارونة Errflingen لابنتهـــا في المشهد الاول من الفصل الثـــاني من مسرحيـــة Das Bumen boot لسودرمان(١) «ان ابناء طبقتنا يعيشون من اجل ان يحوّلوا كـــل الاشياء في هذا العـــالم الـــى بانوراما سعيدة تجري او يبدو انها تجري امام اعيننا » وبكلمات اخـــرى فان اناسا مثل هذه البارونة المتألقة والتي تتحدر من اكثر العائلات بورجوازية ، يجب ان يدرّبوا انفسهم على اعتبار كل شيء يحدث في العالم — من وجهـــة نظرهم الخـــاصة — تجارب شخصية مقبولـــة تقريبـــا . ان تعبير اخـــلاق **احاديـة تصوريـة**(٢) Solipsism يصف احسن من اي تعبير آخر الممثلين النموذجيين للبورجوازية الراهنة . وليس غريبا ان تنبع من مثل هذه المشاعر انظمة لا تعترف بشيء سوى « التجارب » الشخصية ، والتي

---

(١) هيرمان سـودرمان Herman Sudermann (١٨٥٧ — ١٩٢٨)
روائي ومسرحي الماني .

(٢) Solipsism أحادية تصورية أو تصورية مطلقة .
١ — مذهب يقترن بالانانية في رأي فلاسفة القرن الثامن عشر وعلى الاخـص فولف . وصاحب هذه الدعوة الفلسفية هو الطبيب كلود برونية .
٢ — مذهب يقرر ان الانا وحده هو الموجود وأن الفكر لايدرك سوى تصوراته.
٣ — استخدم كانت هذا الاصطلاح ولكن بمعنى عشق الذات .
أما الاخلاق الصورية البحتة فهي التي لاتشتمل على غايات أو دواع مستمدة من التجربـــة .

سوف تصل حتما في النهاية الى احادية تصورية نظرية اذا لم ينقذها مؤسسوها الذين يعوزهم المنطق .

سأبين لك سيدي العزيز في رسالتي القادمة ، كيف أن الاثيرين لديك ماخ وافيناروس انقذا نفسيهما من الاحادية التصورية باستخدام اعمال فذة لا منطقية ! وسأبين لك انت ايضا بهذا المجال ـ انت الذي وجدت انه من المفيد ان تبقى بعيداً عنهما في بعض الامور ـ انه لا توجد حماية من الاحادية التصورية ، اكثر من الانحدار في براثن العبثية النابحة ، ولابد لي في هذا المجال من الانتهاء من معالجة موقفي بالنسبة الى المذهب المادي الفرنسي في القرن الثامن عشر .

بدرجة لا تقل عن انجلز ، فتنت بهذا المذهب المتنوع والغني جدا في المضمون والمشرق شكلاً . اقول لأنه متنوع لأنه كانت هناك عدة اتجاهات متميزة في المذهب المادي الفرنسي في القرن الثامن عشر ، مع انها كانت كلها قريبة بعضها من بعض . ولكنني ادركت مثل انجلز ايضا ان العلم الطبيعي قد تقدم الى حد بعيد منذ ان ازدهر هذا المذهب (المادي) . واننا نستطيع الآن وبلا حرج أن تتقاسم وجهات نظر ذلك العصر، قل مثلا آراء هولباخ حول الفيزياء والكيمياء او علم الاحياء . انني لا أؤيد فقط التعليقات النقدية التي قدمها انجلز في كتابه لودفيغ فيورباخ فيما يتعلق بالمذهب المادي الفرنسي ، بل انني وبدوري اضفت وعزّزت هذه التعليقات النقدية بالرجوع الى المصادر ذاتها . واعرف ان القارىء غير المتحيز سوف يضحك عندما يسمعك تقول انه من دفاعي عن المذهب المادي انما ادافع عن فلسفة العلم الطبيعي للقرن الثامن عشر وكأنها تتميز عن فلسفة القرن العشرين ذاتها (مقدمتك للترجمة الروسية لتحليل الأحاسيس) . وسوف يضحك

اكثر وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى عندما يتذكر ان هيكل(١) هو مادي ايضا . او لعلك سوف تخبرنا بأن هيكل لا يصنف مع العلماء الطبيعيين لعصرنا ايضا ؟ ومن الواضح في هذا المجال انه لا منفذ لك الا ماخ وأولئك الذين يفكرون مثله .

وفي الواقع فإنك لن تجد بين طبيعيي القرن العشرين كثيرين مثل هيكل ، يعتنقون وجهة نظر مادية . وهذا على اي حال ، ليس حجة ضد هيكل . بل هي على الاغلب لمصلحته ، مادامت تبيّن انه كان قادرا على الوقوف في وجه تأثير ردة الفعل المضادة للمادية والتعادل الاجتماعي الذي وضحه انجلز . ولا يمكن أن يصنع العلم الطبيعي هنا اي شيء سيدي العزيز . ذلكم انه ليس لب القضية(٢) .

---

(١) هيكل (١٨٣٤ ـ ١٩١٩) Haeckel : أستاذ علم الحيوان بجامعة يينا (١٨٦٥) أيد مذهب التطور وأرجع الانسان الى الحيوان قبل داروين وكتابه المشهور « ألغاز الكون » (١٨٩٩) يعرض المادية الالية فيقول ان الموجود الضروري الوحيد هو المادة وان الحياة ترجع الى أصل واحد هو « **المونيرا** » التي تركبت اتفاقا من الازوت والهيدروجين والاوكسجين والكربون ثم تطورت على التوالي حتى تكونت جميع الكائنات الحية . ويعد هيكل اثنتين وعشرين حلقة بين المونيرا والانسان ، **ويطلق على مذهبه اسم احادية** Monism الذي يقرر أن الكون واحد فلاتعارض بين المادة والروح ولابين العالم والله . فليس يوجد قوة حيوية وليس العالم مخلوقا **وانما هو متطور** طبقا لقوانين محددة وصارمة . .

(٢) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) اثبات هذا يمكن أن يوجد في خطاب القاه المادي الشهير ج. رينكي (Rinke) في ١٠ ايار ١٩٠٧ في الهيئة التشريعية العليا البروسية حول مجلس الاحاديين الذي أسسه هيكل . وكان عالم النبات هذا يحاول بكل طريقة ممكنة اقناع نفسه وحضوره أن الـ « متعصب » هيكل سبب له الاستياء بدعواه « الاحادية المادية » التي

ومهما تكن الامور مع العلم الطبيعي ، فهي واضحة وضوح النهار ، وهي انك كمدافع عن فلسفة الماخيين ، فمن الواجب عليك وبشكل جازم الا تدعي انك من اتبـاع ماركس وانجلز . وبالفعل فإن ماخ نفسه ، وفي المقدمة للترجمة الروسية لكتابه (تحليل الاحاسيس) وفي الصفحة ٢٩٢ من النص الروسي يعترف مسلما **بأن فلسفته قريبة لهيوم**(١) . فهل تذكر ماذا يقول انجلز عـن هيوم ؟

يقول انه اذا كان الكانتيون الجدد الالمان يحاولون اعادة الحياة **لأفكار كانت**(٢) وان اللاادريين الانكليز يحاولون نبش افكار هيوم

لأساس علمي لها (وهذا بالضبط ماوصف به رنيكي مبدأ هيكل) . وعلى أي حال فأي انسان يقرأ خطاب رينكي بدقة سوف يجد أنه لايدافع عن العلم بل يدافع عن مايدعوه Licht der alten weltanshaung (ولاحاجة للافاضة في العلاقات الاجتماعية التي نشأ فيها هذا النور . وقد أعيد نشر خطاب رينكي في كتب بعنوان (هيكل الاحادي وأصدقاؤه) فون . ن . رينكي ليبزيغ ١٩٠٧ .

(١) ديفيد هيوم (١٧١١ — ١٧٧٦) David Hume فيلسوف لاادري انكليزي يقول بان المعرفة في جملتها مجموع ادراكات وأن العلاقات تنشأ بفعل قوانين تداعي المعاني ، أي قوانين التشابه والتقارن في المكان والزمان والعلية . وأن مبدأ العلية لايلزم من مبدأ عدم التناقض . أي ليس يمكن القول بأن رابطـــة العلية مكتسبة بالاستدلال . يقول ماخ ان فلسفته قريبة من فلسفة هيوم وهذا الاخير يؤكد أننا لن نخطو أبدا خطوة الى مابعد أنفسنا . وأن كل ماعدا الفكر مغيب عنا . بل انه يتساءل بكل وضوح : « بأي حجة ندلل على أن ادراكات الذهن يجب أن تكون حادثة عن اشياء خارجية وانه لايمكن أن تحدث عن قوة الذهن نفسه ؟ » .

ان هيوم يصطنع الاسمية ويقول ان معانينا الكلية جميعا هي في الحقيقة معان جزئية مرتبطة باسم كلي . وأنه لايدري كيف يمكن لفعل ذهني أن يحرك عضوا ماديا .

(٢) لودفيغ فيورباخ س. بترسبورغ ١٩٠٦ ص٤٣ (ماركس وانجلز الاعمال المختارة المجلد ٣ ص ٣٤٧) والتاكيد من عندي (بليخانوف) .

من جديد فإن « **هذا نكوص علمي** » « This ts ... scientifically
aregression » ويبدو ان هذا وعلى نحو كاف من الوضوح ،
لا يحوز رضاك ، لأنك تريدنا أن نؤمن بأن على المرء أن يسير تحت
راية هيوم وماخ .

لنتكلم عموما ياسيد يوجدانوف ، ولنقل انه لم يكن يوما
سعيدا ، ذاك النهار الذي قررت فيه طردي من مدرسة ماركس
وايجلز ، وادراجي بين تلاميذ هولباخ . وبفعلك ذاك لم تقترف
اثما ضد الحقيقة فقط بل كشفت عن غباوة مدهشة في المناظرة .

والآن فإنك معجب بما صنعته يداك . انك مسرور في « ان
اسس وجوهر المذهب المادي ، استنادا الى الرفيق بيلتوف ،
هي معنى اعطاء « الطبيعة » درجة اولية على « الروح » وهذا
التعريف شامل جدا ، وله في هذه الحالة مساوءه »(١) .

وسوف نترك في الوقت الحاضر المساويء جانبا ، ونتذكر
انك كتبت هذه الاسطر مباشرة بعد ان ذكرت انني قدمت المذهب
المادي «باسم ماركس وبمعونة اقتباسات من هولباخ» ، وبالتالي،
فإن المرء قد يفكر ان تعريفي لـ « اسس وجوهر » المذهب المادي
مستعار من هولباخ ويتناقض في الواقع مع ما ادّعيت انه حقي
بالحديث مفصلا باسم ماركس . ولكن كيف عرّف مؤسسا
الاشتراكية العلمية المذهب المادي ؟

كتب انجلز انه حول مسألة علاقة الموجود بالتفكير ، انقسم
الفلاسفة الى معسكرين كبيرين . « اولئك الذين ايدوا اعطاء
الروح درجة اولية على الطبيعة ، وفي اللحظة الاخيرة افترضوا
خلق العالم بشكل او آخر ... وشكّل هؤلاء معسكر المذهب
المثالي ، وينتمي الآخرون الذين اعتبروا الطبيعة في درجة اولية

---

(١) التجريبية الاحادية الكتاب الثالث ص ١١ .

على الروح ، الى مدارس عديدة في المذهب المادي » .

اوليس هذا بالضبط ما قلته حول « اسس وجوهر المذهب المادي » ؟ وهكذا وفي هذه الحالة على الاقل ، لي الحق ، كل الحق ان اقدم المذهب المادي باسم ماركس وانجلز ، وبدون الحاجة الى ايه معونة من هولباخ !

ثم اولم تفكر قليلا سيدي العزيز بالمأزق الذي زججت نفسك فيه بمهاجمتك التعريف الذي قبلته للمذهب المادي ؟ انت رغبت بمهاجمتي ، ولكن مهاجمتك انقلبت في النهاية هجوما ضد ماركس وانجلز . انت رغبت بطردي من مدرسة هذين المفكرين ، ولكن الذي حصل ، انك خلصت الى ان تكون «منتقدا» لماركس . وهذا بالطبع ليس جريمة، بل انه حقيقة . وهو في اللحظة الراهنة . نقد مقنّع كبير ! ويبرهن هذا مرة ثانية على جبنك . انت تحب انتقاد انجلز ولكنك تخاف مواجهته صراحة . وهكذا عزوت افكاره لهولباخ وبليخانوف ، وتلكم هي طريقتك ، طريقة الشماعة . وهي طريقة يبدو انها مفضلة لديك . بالنسبة لي ، ليست المسألة برمتها ، مسألة اضطهادك ولكنها والى حد ما ، تعريف بك ، أعني التوضيح لقرائي لأية مقولة متعالمة تنتمي !

اعتقد ان هذا أصبح واضحا لهم وعلى نحو كافٍ . ويجب عليّ على اي حال ، ان احذّرهم من اننا لم نشاهد منك الا تفتح الزهر فقط . ولكننا سنأكل الثمر في الرسالة التالية . حيث سنتجول فيها بأفياء نقدك لنظريتي في المعرفة . وسوف نجد هناك ثمارا كثيرة رطبة ومفعمة حلاوة .

ولكنني يجب ان انهي رسالتي الآن . وحتى نلتقي مرة ثانية سيدي العزيز فليحرسك اله آلسيد لوناتشارسكي .

ج. ف. بليخانوف .

الرسالة الثانية

« لقد طلبت ذلك يا جورج داندن » .

تقع رسالتي هذه اليك في قسمين . وأجد نفسي في القسم الاول « مجبراً » في الرد على اعتراضاتك « النقدية » التي اثرتها ضد مذهب « ي » المادي . واود ان استخدم في القسم الثاني حقي في مراجعة وفحص اسس تلك « الفلسفة » العدائية التي تهاجمني باسمها وبمعونة ما تحب ان « تضيفه » لماركس ، اعني فلسفة ماخ . واعرف أن القسم الاول سوف يكون مملاً لكثير من القراء الا أنني مضطر لاقتفاء أثرك . واذا كان لا يوجد الا قسط يسير من المسرة في تجوالنا المشترك بين أفياء بستانك « النقدي » فلست الملام ، بل انت الذي خططت وزرعت البستان .

القسم الأول

انتقدت تعريف « ي » للمادة الذي اخذته من المقطع التالي من كتابي « مقالة نقدية لنقادنا » :

« ونقيضا « للروح » فإننا ندعو « المادة » تلك التي تؤثر في اعضاء حواسنا وتثير فينا احاسيس مختلفة . فماذا بالضبط تؤثر على اعضاء حواسنا ؟ بالنسبة لهذا السؤال فانني اجيب مع كانت[1] : **الشيء في ذاته** . وهكذا فالمادة لا شيء آخر اكثر من المجموع الكلي للأشياء في ذاتها . مادامت هـذه الاشياء تشكل مصدر احاسيسنا » .

---

(1) يؤكد كانت أن التجربة هي نقطة البدء في كل ما لدينا من معارف : لان ماينبه الملكة العارفة الكامنة فينا انما هو الموضوعات التي تؤثر على حواسنا . فتولد في أذهاننا بعض التمثلات أو تبعث قوانا العاقلة على تحقيق بعض أوجـه النشاط . ويقول **كانت** : « ان الموضوعات معطاة لنا عن طريق الحس . والحس وحده هو الذي يمدنا بالادراكات الحسية . وأما عن طريق الفهم فان الموضوعات تصبح متعقلة وتتولد عنهـا مفاهيم » . ومن هذه العبـارة فان **كانت** يفرق منذ البداية تفرقة حاسمة بين عملية « الادراك الحسي » وعملية « الفهم » فهويعارض الفلاسفة العقليين الذين يعتبرون الادراك الحسي مجرد صورة دنيا من صور الحكم، كما أنه يعارض الفلاسفة التجريبيين الذين يميلون الى التوحيد بين عمليةالحكم وعملية الادراك الحسي . ولكن على الرغم من هذا التمييز فاننا نجد **كانت** يقرر أن كل تفكير انما يحيلنا (بطريقة مباشرة أو غير مباشرة) في خاتمة المطاف الى مدركات حسية . وفي رأي **كانت** أن هناك مصدرين للمعرفة البشرية هما الحساسية والفهم . الاول يمدنا بالموضوعات والثاني يسمح لنا بتعقل تلك الموضوعات .

ويبدو ان هذا المقطع قد اثار مرحك .

وكتبت بسخرية : وهكذا « فالمادة » [أو (الطبيعة) في تناقضهامع (الروح)] قد عرفت بواسطة الاشياء ــ في ــ ذاتها ومن خلال قدرتها على « اثارة الاحاسيس للتأثير على اعضاء حواسنا ؛ ولكن ماهي هذه الاشياء ــ في ذاتها ؟ (تلك التي تؤثر على اعضاء حواسنا وتثير فينا أحاسيس مختلفة) ذلكم هو كل شيء . وانك سوف تجد ان الرفيق بيلتوف لا يملك تعريفا آخر ، اذا لم تأخذ بعين الاعتبار الميزات السلبية المتضمنة : لا « الاحساس » ولا « الظاهرة » ولا التجربة »(١) .

تمهّل سيدي العزيز ولا تنس أن من يضحك اخيرا يضحك كثيرا . (rira bien qui rira ie dernier)

إنا لم اعرّف المادة (بواسطة) الاشياء ــ في ــ ذاتها اطلاقا . وانما اكدت فقط أن جميع الاشياء في ذاتها هي مادية . وبواسطة مادية الاشياء في ذاتها فهمتُ ــ وانت هنا على صواب ــ قدرتها بطريقة او اخرى وبشكل مباشر او غير مباشر ، على التأثير على حواسنا وهكذا تثير فينا احاسيس من نمط واجد او آخر ، وفي خلافي مع الكانتيين فانني اعتقد أنني كنت مخوّلا للاشارة ببساطة الى أن الاشياء تملك هذه القدرة . ولم تكن هذه القدرة مثار استفهام فقد عرّفها **كانت** بوضوح في الصفحة الاولى من كتابه « نقد العقل الخالص » Critique of pure reason

ولكن **كانت**(١) ، كان متناقضا مع نفسه . ففي الصفحة الاولى من

---

(١) التجريبية الاحادية . الكتاب الثالث . س. بترسبورغ ١٩٠٦ ص ١٣ .

(٢) على الرغم من أنكل معرفتنا ــ برأي كانت ــ انما تبدأ بالتجربة . الا أن هذا لايعني ان تكون كل معارفنا مستخلصة بالضرورة من التجربة . واية ذلك أن هناك معرفة مستقلة تمام الاستقلال عن التجربة وغير مرتبطة أصلا بأي انطباع حسي.

الكتاب المشار اليه اعلاهاعترف بالشيء ـ في ذاته ـ على انه مصدر احاسيسنا ، ولكنه في الوقت ذاته كان على اي حال يتفادى الاعتراف بهذه الاشياء كشيء ما لا مادي . اي متعذرة بالنسبة لحواسنا . ونزعته هذه التي قادته الى التناقض مع نفسه توضحت بجلاء في كتابه «نقد العقل العملي Critique of practical reason وكان من الطبيعي تماما بالنسبة لي ، ومن وجهة نظر نزعته هذه ان اصر خلال جدلي مع اتباع **كانت** على ان الاشياء في ذاتها وباعترافه شخصيا هي مصدر احاسيسنا . وهي تملك كل الدلائل على كونها مادية . واثناء اصراري على هذا فانني افضح تناقض **كانت** واعرض على اتباعه انه من الضرورة المنطقية بالنسبة لهم أن يعلنوا تصريحهم عن التناقض الاول أو الثاني من هذين العنصرين وبذلك يصلون للمخرج الذي لم يستطع بطلهم **كانت** ايجاده. وقلت انهم لن يكونوا راضين عن ثنائية **كانت** Kant's dualism

---

وتلك هي المعرفة الاولية الخالصة المتقدمة على كل تجربة . **وكانت** يميز بين هذه « المعرفة الخالصة » التي يعتبرها قبلية وبين « المعرفة التجريبية »التي يقول عنها انها لاحقة أو متاخرة . والمعرفة الاولية هي ـ بطبيعتها ـ معرفة ضرورية لاتحتمل أدنى امكان أو احتمال أو ظن ، كما أنها في الوقت نفسه معرفة كلية ليس فيها أدنى موضع للتحديد أو التخصيص أو الاستثناء . **وكانت** يعتبر العناصر الاولية بمثابة شروط ضرورية للمعرفة على أن تجيء العيانات الحسية أوالحدوس التجريبية فتكون بمثابة معطيات .

(١) ثنائية Dualism مذهب يقول بمبدأين يدبران العالم ، أو يدبره أحدهما ويفسده الاخر . ويرجع هذا المذهب الى أوائل عهد الفلسفة . قال **انكساغورس** ان المادة كانت مختلطة مضطربة فنظمها العقل أي الاله العاقل. وقال **أفلاطون** مثل ذلك **والمانيون** اثنينيون . أما عن **كانت** فيجمع بين المذهبين الحسي والعقلي في محاولة قوية لتفسير العلم والوجود . فقد وجد **كانت** نفسه ازاء

وكان عليهم أن يقبلوا أما المذهب المثالي الذاتي Subjective idealism أو المذهب المادي(١) . وبما ان نزاعنا اخذ هذه الوجهة ، فانني اجد من الضرورة الاشارة الى الملامح الرئيسية التي تميّز المذهب المثالي الذاتي عن المذهب المادي . اعني ان المذهب المثالي الذاتي ينفي الطبيعة المادية للاشياء ، في حين أن المذهب المادي يعترف بها . ومن الممكن ان يكون هذا معروفا حتى لك يا سيد يوجدانوف الذي لا تعرف عن تاريخ الفلسفة اي شيء اطلاقا .

وعلى هذا الشكل تقف الامور . ولكنك على الاقل لم تستوعب

تيارين فلسفيين متعارضين : تيار الفلسفة الاعتقادية التوكيدية الذي كان يمثله الفيلسوف الالماني فولف . وتيار الفلسفة الارتيابية التشكيكية الذي كان يمثله الفيلسوف الانكليزي **هيوم** . ومن هنا فقد وجد **كانت** انه لاسبيل الى الفصل في الخصومة التي قامت بين أنصار كل من الطرفين اللهم الا بالالتجاء الى **محكمة** النقد . ومن هنا فان الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله **النقد الكانتي** انما هو الفصل في مشكلة امكان قيام الميتافيزيقا أو استحالة قيامها بصفة عامة مع الاهتمام بتحديد أصل هذا العلم ومداه وحدوده بالاستناد الى مبادىء عقلية واضحة . فقد لاحظ **كانت** أن كل هم الفلاسفة الميتافيزيقيين قد انحصر في اقامة العلم على أساس ميتافيزيقي مما حدا بالمذهب التجريبي الى جعل « الشك » هو الكلمة الاخيرة لكل فلسفة . وقد وجد **كانت** نفسه بازاء موقف عقلي يسوده التناقض : اذ تحقق من وجود تعارض جوهري بين نزعة فولف العقلية التي تنحدر أصولها الى ليبنتز **ونزعة هيوم التجريبية التشكيكية التي كان لها الفضل في ايقاظه من سباته الايقاني القطعي** . فحاول عن طريق النقد ان يتلافى أخطاء الفلاسفة الايقانيين التوكيديين دون أن ينحدر الى هاوية الشك كما فعل جماعة التجريبيين الارتيابيين .

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) حول هذه القضية انظر مقالتي « كونراد شميدت ضد . ل. ماركس و ف. انجلز » و « المذهب المادي أو المذهب الكانتي » في مجموعة أعمالي « مقالة نقدية لنقادنا » س. بترسبورغ ١٩٠٦ ص ١٦٧ – ٢٠٢ .

المضمون (ومن الواضح انك غير قادر على الاستيعاب) وانما تمسكت على الفور بكلمات ظل معناها « غير معروف » تماما بالنسبة لك . ثم طلعت عليّ بسخريتك الرخيصة. فكلما تسرّعت يا سيد بوجدانوف كلما كان تقدمك بطيئا .

وبالمضي اماما فإنه يجب عليّ ان أشير في نزاعي معك ، وفي الغالب اكثر مما أشير في نقاشي مع الكانتيين ـ الى السمة الرئيسية التي تميّز المذهب المادي عن المذهب المثالي الذاتي . وسأحاول بناء على ذلك شرح هذه السمة لك وبمعونة بعض مقاطع آمل ان تكون مقنعة تماما .

كتب جورج باركلي(١) George Berkeley المثالي الذاتي

---

(١) **جورج باركلي** (١٦٨٥ ـ ١٧٥٣)رجل دين وجد في المبدأ المثالي وسيلة لانكار المادة والرد على الماديين . جعل من الاله محور مذهبه في الوجود والمعرفة واليقين . يصدر باركلي عن **لوك** ولكنه يعارضه ويزعم أنه يصحح موقفه في غير ما موضع . أنكر لوك موضوعة الكيفيات الثانوية وامن بالكيفيات الاولية المترجمة عن الامتداد أو المادة فقال **باركلي** : وماالذي يخولنا الحق في الايمان بوجودها وما الفائدة في استبقاء المادة مع الاقرار باننا نجهل ماهيتها ؟ ليس يوجد سوى الارواح فاللامادية هي الحق . وأنكر **لوك** موضوعية الانواع والاجناس فامن بالمعاني المجردة في الذهن فحسب فقال **باركلي** « بل ليس يوجد في الذهن معان مجردة ، وجميع معارفنا جزئية وكل ما هنالك أن اسما بعينه ينطبق على جزئيات عدة فالمذهب كله يرجع الى هاتين النقطتين : **الاسمية واللامادية** . ويرى باركلي أن اللامتعين **ممتنع التصور وان من المحال ان يوجد معنى مكان لامتناه** من حيث أن كل معنى **فهو متناه وأن المكان المدرك بالحس متناه دائما** ومامعنى الزمان الا معنى تعاقب المعاني في الذهن وأما المكان فان اللامادية تبين بطلانه وليس يوجد رباط ذاتي بين مايسمى علة ومايسمى معلولا ومانظام العالم الا نتيجة **الارادة الالهية** . ويأخذ **بركلي** على **ديكارت ولوك** اعتقادهما بوجود المادة بعد قولهما أن المعاني أحوال للنفس . ويقرر بركلي أن « وجود الموجود هو أن يدرك أو أن يدرك » والمدرك معنى وغير المدرك لاوجود له .

(والاسقف الانجليكاني) في كتابه « مبادىء المعرفة الانسانية » The principles of Human knowledge «انه بالفعل رأيغريب منتشر بين الناس ، ان المنازل والجبال والانهار ، وبكلمة واحدة كل الاشياء المدركة بالحواس ، لها وجود طبيعي أو حقيقي ، تتميز من وجهة وجودها كونها مدركة بالفهم » ولكن هذا الرأي يمكن ان يحتوي على تناقض جلي « ما هي ماهية المواضيع سوى انهـا اشياء ندركها بالحس ؟ وماذا ندرك بالاضافة الـــى افكارنا او احاسيسنا الخاصة ؟ » ويتابع باركلي : « اللون ، الحجـــم ، الحركة ، السعة ، معان معروفة بالنسبة لنـــا كأحاسيسنا ، ولكننا سوف نوقع انفسنا في شرك التناقضات **اذا اعتبرناهـــا** كاشارات أو صور الاشياء الموجودة خارج التفكير(١) » .

---

(١) والى التدليل على اننا لاندرك المادة يبين **باركلي** أن البصر لايـدرك بذاته مقادير الاشياء وأوضاعها ومسافاتها . وكل مايدركه البصر ان هو الا علامات أو دلائل على المسافات والاوضاع والمقادير . ذلك بان ادراك الكيفيات الاوليـــة يرجع في الاصل الى اللمس وحده . وبتكرار التجربة ينشأ تقارن بين مدركات اللمس وبين بعض الاحساسات البصرية ، هي اختلاف الاضواء والالوان أوبعض الاحساسات العضلية الناجمة من حركات العينين ، فتصير هذه كافية لتقديـر مسافات الاشياء واوضاعها ومقاديرها ولاتدعنا العادة نشعر بذلك بل نعتقد أننا نبصر الكيفيات الملموسة ونحن نستنتجها استنتاجا من الكيفيات المبصرة التي هي علامات عليها . ان (معاني اللمس والبصر نوعان متمايزان متغايران وليس بينهما ارتباط ضروري بل كل مابينهما تاقرن تجاريبي) ويقول **باركلي : « لاتقولن ان اللامادية تحيل الاشياء معاني ، وانما هي تحيل المعاني أشياء »** وانبا نميز الاحساس من الصورة والموجود من المتخيل بقوة الاحساس وتميزه بالنسبة الى الضرورة وبأن الاحساسات أشد تماسكا واكثر انتظاما من الصور . ولكن كيف نفسر ائتلاف الاحساسات في مجاميع واطراد هذه العلاقات في مجاميع ؟ يقول باركلي لانلتمس التفسير في المحسوسات أنفسها باعتبارها اشياء قائمة خارج الذهن ونحن لاندرك شيئا خارج الذهن ولانستطيع ان نتصور تفاعلا بين جوهر مادي هو الشيء واخـر روحي هو النفس ــ اذن يجب ان تكون العلة المطلوبة روحية خارجية (الله) .

ويقول فيورباخ المادي ، وهو صاحب الموقف المباين للمثاليين الذاتيين « **للبرهنة على ان شيئا ما موجود ، يعني البرهنة على ان شيئا ما لا يوجد فقط في التفكير** » .

ويذكر انجلز الشيء ذاته تماما في مناظرته مع دوهرنغ(١) Dühring عندما تعارضت وجهة نظره مع وجهة نظر الماديين **حول العالم كفكرة** . واعلن رأيه بأن الوحدة الحقيقية للعالم **تكمن في ماديته**(٢) (besteht in threr Materialität)

وبعد هذا فهل من الضروري الاستطراد في الشرح لما ندركه نحن الماديين من مادية الاشياء ؟ ولكي نكون على جانب الامان فانني سوف أفسّر ذلك .

اننا ندعو الاشياء المادية (الاجسام) تلك الاشياء التي توجد مستقلة عن شعورنا ، وتؤثر على حواسنا ، وتثير فينا بعض الاحاسيس التي تشكل بدورها معانينا عن العالم الخارجي ، أي تلك المعاني ذات المواضيع المادية ذاتها بالاضافة الى علاقاتها المتبادلة.

وذلك كما اعتقد كافٍ . ولكنني سأضيف هذا فقط : ان ماخ الذي تؤمن ياسيدي العزيز ان « **فلسفته** » سوف تكون « **فلسفة** » العلم الطبيعي للقرن العشرين ، **يلتزم بشدة وفيما يتعلق بهذه المسألة ، وعلى نحو وثيق بوجهة نظر باركلي فيلسوف القرن الثامن عشر المثالي الذاتي** . بل ان ماخ يستخدم غالبا التعابير ذاتها التي يستخدمها الاسقف المبجّل . فهو يقول : « ليست الاجسام هي التي تولّد الاحاسيس بل ان **مركبات العناصر** Complex of elements (مركبات الاحاسيس Complex of sensations) هي التي تشكل الاجسام . فاذا بدت

---

(١) يوجين دوهرنغ Eugen Dühring (١٨٣٣ – ١٩٢١) فيلسوف انتقائي الماني واقتصادي .

(٢) ف. انجلز . ضد دوهرنغ – موسكو ١٩٦٩ ص ٥٨ .

الاجسام لعالم الطبيعة شيئا ما واقعيا ومستمراً ، **والعناصر** هي الانعكاس العابر والسريع لهذه الاجسام ، فانه لا يلاحظ ان جميع الاجسام ليست الا رموزاً منطقية **لمركبات العناصر** (مركبات الاحاسيس)(١) .

وأنت مطلع طبعا ، وبشكل جيد يا سيد بوجدانوف على ما يقوله استاذك بالضبط حول هذا الموضوع . ولكن من الجلي انك لا تعرف اطلاقا ما قاله باركلي حول هذا الموضوع . فأنتمثل جوردان موليير Moliére's Jurdain الذي ظل أمدا طويلا لا يعرف أنه يتحدث النثر . أنك متضلع بوجهة نظر ماخ حول المادة ولكنك لسذاجتك لم تكن لديك آية فكرة ان هذه هي **وجهة نظر مثالية صرفة** . وهذا هو السبب في دهشتك لتعريفي للمادة. والسبب أيضا في فشلك معرفة لماذا كان من الضروري بالنسبة لي : الاصرار اثناء جدلي مع الكانتيين الجدد ، على مادية الاشياء في ذاتها . كم مثير للضحك يا عزيزي جوردان ! ايها السيد بوجدانوف !

ولو كنت على معرفة قليلة بتاريخ الفلسفة لكنت على معرفة تامة بأن تعريف المادة الذي سبب لك مثل ذلك المرح الزائد ، ليس ملكي الخاص . ولكنه ملك عام لعديد من المفكرين الماديين بل وحتى لمعسكر المثاليين . وقد تمسك بهذا على سبيل المثال في القرن الثامن عشر الماديان هولباخ وجوزيف بريستلي(٢) ، ويمكننا القول بأن ي . نافيل (المثالي الذاتي) قد تمسك بذلك في يوم

---

(١) تحليل الاحاسيس . ترجمة ج. كوتليار . نشر سكرمونت ص ٣٣.

(٢) بالاستناد الى بريستلي فالمادة هي موضوع أي من حواسنا . (ابحاث تتعلق بالمادة والروح . لندن ١٧٧٧ ص ١٤٢).

آخر . وقرأ في الاكاديمية الفرنسية جوابا على السؤال : ما هي المادة ؟ « قائلا : « تلك التي تتكشف لحواسنا الخارجية(1) »
« C'est ce qui se révéle à nos sns » ويمكنك أن تدرك من هذا سيدي العزيز مدى انتشار تعريف «في » للمادة . وعلى أي حال فلا تتصور أنني بالاشارة الى هذا أحاول تفادي ضرباتك « النقدية » وتحويلها الى الآخرين . لست من هذا النمط وانني استطيع شخصيا تفادي هذه الضربات ، ولست في ذلك بحاجة الى كبير شجاعة ما دامت ضرباتك الحقيقية واهنة وطائشة ولا تبعث على الخوف .

واذا كنت أعرّف المادة كمصدر لاحاسيسنا ؛ فانك تعتقد، وبصورة غير مبررة تماما ، انني ، وعلى وجه الاحتمال ، أصف المادة بطريقة سلبية أي انها لا تجريبية . ويبدو لي الامر غريبا جدا كيف انك تخطىء هذا الخطأ الفادح . وبالفعل فان صفحات عديدة من الكتاب ذاته التي اقبستَ منه (**مقالة نقدية لنقادنا**) كان يجب أن يوضح لك مففهومي عن التجربة ، والاكثر من ذلك ، ان مفهومي للتجربة كان يمكن ان يوضحّ لك ملاحظات كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ** ، الذي استشهدتَ به ايضا . فأنا اقول في ملاحظة من هذه الملاحظات وفي جدآلي مع الكانتيين الجدد : « كل تجربة وكل فعل ناتج عن الانسان يمثل اتجاهه الفاعل ازاء العالم الخارجي ، **والاستدعاء القصدي** لظاهرة معينة ، ما دامت الظاهرة هي حاصل فعل عليّ من قبل الشيء في ذاته (ويقول كانت **تأثري بالشيء**) ، وبانجاز التجربة او الانشغال مؤقتا في فعل انتاج ما ، فانني اجبر الشيء في ذاته « **التاثير** » على (أنيتي) بطريقة خاصة

---

(1) La Matiére. Mémoire présenté à l'institute de France
ص ٥ وقد قرأ ذلك في نيسان من هذا العام .

قررتها سابقا . وبالتالي اكون عارفا بعض خواصهـا على الاقل، وبواسطتها اجبره على الفعل(١) » والمعنى المباشر لهذا ان التجربة تقتضي ضمنا التفاعل بين الأنا والموضوع الواقع خارجها، ويتضح من هذا انني كنت سأتورط في تناقض غير مغفور مع نفسي لو حاولت سلبا تعريف **الموضوع** بعبارة « لا تجريبي » . شـكرا الله . انه بالضبط « التجربة » والاكثر صحة انه **احد الشرطين الضرورين للتجربـة** .

وفي الصفحة (١٧) من المقدمة في كتابك يا سيد بوجدانوف صغت وباختلاف كامل فكرة نسبتها إليّ وجعلتني أقول هناك ان « الاشياء في ذاتها » توجد في المرتبة الاولى ، واكثر من ذلك انهـا موضوع لقانون العلية وفي هذا غرابة اكثر .

اذا كانت الاشياء في ذاتها **« موضوعـا لقانون العلية »** فمـن الواضح انها لا توجد خارج التجربة . فكيف فشلت في رؤية ذلك عندما نسّبت إليّ افتراضين يناقض احدهما الآخر بحدة ؟ واذا كنت تعتقد فعلا انني اتناقض هنا مع نفسي فقد كان من الواجب عليك فورا لفت انتباه قرائك الى افتقاري الجسيم للمنطق ما دام ذلك وحده كافٍ لابطال **نظريتي** الكاملة في المعرفة . انك مجادل سيء يا سيد بوجدانوف ! او انك احجمت عـن كشف « تناقضي المزعوم » لتأكدك ان هذا التناقض لا وجود له الا في مخيلتك فقط . واذا كان الامر كذلك فيجب ان تفـكر مليا بهـذه « التجربة » الخاصة بك من اجل توضيحها بدلا من تركها مغلفـة بالغموض . ولقد كان حري بك منذ البدء الا تنسب إليّ ذلك وكنت انقـذت نفسك من اقتراف اكثر الاغلاط سخافـة . ومرة ثانيـة اراني مضطرا للقول هنا انك مجادل سيء وسخيف يا سيد بوجدانوف .

---

(١) لودفيغ فيورباخ س. بترسبورغ ١٩٠٦ ص ١١٨ .

دعنا نواصل التقدم الى امام اكثر ، ولاحظ قبل كل شيء ان التعبير « الاشياء في ذاتها توجد خارج تجربتنا » هو تعبير غير مؤات جداً . انه يمكن ان يعني ان الاشياء بصورة عامة متعذرة بالنسبة لتجربتنا وهذا ما فهمه **كانت** ـ وكما قلت سابقا ـ وناقض نفسه في النتيجة(١) . وقد فهمه كل الكانتيين الجدد تقريبا بهذه الطريقة ، وفي هذه الحال فان ماخ يكون على اتفاق معهم . واما بالنسبة إليّ فان كلمة الشيء في ذاته مرتبطة دائما مع معنى لنوع ما من (س) يقع خارج حدود تجربتنا . وبفضل مثل هذا المعنى الذي يدعى الشيء في ذاته فقد كان **ماخ** منطقيا تماما في التأكيد على ان الشيء في ذاته هو اضافة ميتافيزيقية غير ضرورية وعلى نحو قاطع بحسب المفاهيم التي نستمدها من التجربة . وأنت يا سيد بوجدانوف تنظر الى هذه المسألة من خلال عيون استاذك ، ومن البيّن انك لا تستطيع ولو للحظة الاعتراف انه من الممكن ان يوجد أناس يستخدمون عبارة « الشيء في ذاته » في معنى مختلف تمما عن الكانتيين والماخيين وهذا هو السبب في انك غير قادر تماما على فهمي ، أنا الذي لست كانتيا ولا ماخيا .

وحتى الآن فان المسألة بسيطة جدا . وحتى لو قررت استخدام التعبير المنكود الحظ « الاشياء في ذاتها الموجودة خارج التجربة » فانه سوف يعني على أي حال ان الاشياء في ذاتها متعذرة بالنسبة لتجربتناولكنها موجودةفقط وحتى عندمالاتطالها تجربتنا لسبب أو آخر .

وبالقول « تجربتنا » فانني أتذكر التجربة الانسانية . ولكننا نعي انه في وقت ما لم يكن يوجد أناس على كوكبنا ، أقصد ارضنا .

---

(٢) حول هذا التناقض عند **كانت** انظر كتابي « مقالة نقدية لنقادنا » ص ١٦٧ .

واذا كان لا يوجد أناس فقد كانت لا توجد تجاربهم . حتى وجدت الارض . وهذا يعني ان (الشيء في ذاته أيضا) وجد خارج التجربة الانسانية . فلماذا يوجد خارج التجربة ؟ هل لانه لا يستطيع ان يكون وبوجه عام موضوعا للتجربة ؟ كلا . وجد خارج التجربة فقط لان الكائنات الحية التي بواسطة تركيبها تكون قادرة على امتلاك التجربة ، لم تكن قد ظهرت حتى الآن(١) . وبكلمات اخرى « موجود خارج التجربة » يعني « موجود قبل التجربة » . ذلكم هو الامر ولا شيء اكثر من ذلك . وعلى النحو المشار فعندما بدأت التجربة ، وجدت (الارض) ، ليس فقط خارج التجربة بل ايضا في التجربة مشكلة شرطا رئيسيا للتجربة . وكل هذا يمكن أن يعبر عنه بايجاز : التجربة هي نتيجة التفاعل بين الأنا والموضوع ، ولكن الموضوع لا يتوقف عن الوجود وحتى عندما لا يوجد تفاعل بينه وبين الأنا . أي عندما لا توجد تجربة . والفرضية الشهيرة : « لا يوجد موضوع بدون ذات » غير صحيحة بشكل اساسي(٢) . فالموضوع لايتوقف عن الوجود وحتى عندما يتوقف هو عن الوجود . وأي انسان لا تعني لديه نتائج العلم الطبيعي الحديث عبارة فارغة فيجب أن يوافق على هذا بالضرورة . وقد رأينا ذلك وفقا لنظرية النشوء والارتقاء المعاصرة . تظهر الذات فقط بعد أن يكون الموضوع قد وصل الى درجة معينة من التطور .

---

(١) في الحقيقة ان الحيوانات قادرة ايضا على التجربة ولكن لاحاجة للتعرض لهذا هنا مادام الذي قلته حول التجربة الانسانية يكفي لتوضيح وجهة نظري .

(٢) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) (Kein objekt ohne subjekt) قال سشواب ان هذه الفلسفة في جوهرها تتطابق مع تعاليم ماخ وأفيناريوس .

وأولئك الذين اقتنعوا بأنه لا يمكن أن يوجد موضوع بدون ذات يخلطون خطأ بين معنيين مختلفين تماما : وجود الموضوع « بالذات » ووجوده في مفهوم الذات . وليس لنا حق تعيين هوية هذين الشكلين من الوجود . وهكذا على سبيل المثال ، فانك يا سيد بوجدانوف قد وجدت أولا « في نفسك » وثانيا في مفهوم ولنقل السيد لوناتشارسكي ، الذي يعتبرك مفكرا عميق التفكير . ان خلط الموضوع « في ذاته » مع الموضوع كما يوجد للذات هو مصدر كل خلط والذي بواسطته شوه المثاليون (من كل لون وصنف) المذهب المادي .

ان الاعتراضات التي تثيرها سيدي العزيز ضدي ترتكز على الخلط ذاته . ومن وجهة هذه الواقعة فانك غير راضٍ عن «تعريفي» للمادة كمصدر للاحاسيس . فدعنا اذن نعاين وعن قرب اكثر ما الذي سبب استيائك بالضبط .

انك تقارن « تعريفي » للمادة بالفرضية القائلة « قوة المخدّر هي التي تسبب النوم » وقد استعرت هذا التعبير (في ص ١٣ من المقدمة) من احدى شخصيات موليير ، ولكنك كالعادة ولدته برداءة . تقول شخصية موليير : « الافيون سبب النوم لانه يملك قوة منوّمه » واذا كانت شخصية موليير قانعة بذكر الحقيقة فقد كان من الاولى عليها ان تقول : « الافيون يسبب النوم » والآن لنتذكر ما قلت : « تثير المادة فينا بعض الاحاسيس » فهل هذا يشابه التفسير الذي قدمته شخصية موليير ؟ ليس كذلك . وانا لا اوضح بل انني اذكر ما أؤمن انه حقيقة لا تقبل الجدل . وكل الماديون الآخرون يعملون بالطريقة ذاتها . وأولئك الذين يعرفون تاريخ المذهب المادي مطلعون على انه لم يسأل أي من ممثلي هذا المذهب انفسهم لماذا تملك مواضيع العالم الخارجي

القدرة على اثارة الاحاسيس فينا . وبالفعل ، فان بعض الماديين الانكليز اكدوا في بعض الاحيان ان هذا حدث **بالارادة الإلهية** . وعلى أي حال فعندما عبروا عن هذا التفكير الديني الورع ، فقد كانوا يتخلون عن وجهة نظر المذهب المادي ، ثم يثبتون عليه مرة ثانية . وانت يا سيدي العزيز تسخر مني بدون سبب وجيه . وعندما يسخر الانسان من آخر بدون سبب وجيه ، فانه يضع نفسه وببساطة في مواقع الغباء ومن يضحك أخيرا يضحك كثيرا .

وتعتقد ان التعريف«المادة هي ما يصلح كمصدر لاحاسيسنا» هو عبارة فارغة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . والسبب الوحيد لتفكيرك هكذا هو انك مملوء بالحقد والتحامل المرتكز على نظرية مثالية للمعرفة .

وبازعاجك إياي بالسؤال عما هو بالضبط الذي يثير فينا الاحاسيس فانك ترغب مني حقاً ان اخبرك عما نعرفه بالضبط عن المادة الى جانب فعلها علينا . وعندما أجبت : الى جانب فعلها علينا ، فاننا لا نعرف أي شيء عنها . صرخت متبهجا : « ذلك يعني اننا لا نعرف أي شيء عنها ! » . والآن فعلى أي اساس تستند في ابتهاجك هذا ؟ ان اسس معتقدك المثالي قد تحدرت اليك من ماخ ، الذي استعاره من **كانت** وهذا بدوره ورثه بالمقابل من **افلاطون**(١) . ومهما يكن الامر ازاء هذا المعتقد المحترم ، فانه على أي حال ليس صحيحا تماما .

لا توجد ولا يمكن ان توجد اية معرفة اخرى للموضوع اكثر

---

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الهجوم) وبناء على ذلك فان جوهر فلسفة افلاطون الثنائية . وشرع في هذه الفلسفة بين نموذجين من المعرفة ــ التفكير والادراك ــ وكذلك بالمشابهة بين هدفين العالم اللامادي والمادي (و . فنديلياند ، افلاطون ص ٨٥ ــ ٨٦) .

من تلك التي يحصل عليها بوساطة الانطباعات التي يولدها فينا .
وبناء على ذلك ، فانني اعترف ان المادة معروفة لنا فقط بواسطة الاحسيس ((**التي تولدها فينا**)) وهذا لا يتضمن بأية طريقة انني اعتبر المادة كشيء ما ((غير معروف)) وغير قابل للمعرفة . بل على العكس انه يعني ، اولا ، ان المادة هي قابلة للمعرفة ، وثانيا انها تصبح معروفة للانسان بالقياس الى مقدار نجاحه في التوصل الى معرفة خواصها بواسطة الانطباعات التي يتلقاها عبر مسيرة وجوده الحيواني والتاريخي الطويلة .

واذا كان الامر كذلك ، اذا كنا نستطيع معرفة الموضوع فقط بواسطة الانطباعات التي يولّدها فينا ، إذن فيجب ان يكون واضحا لاي امرىء قادر على التفكير انه اذا كنا نتغاضى عن هذه الانطباعات ، فاننا سنكون غير قادرين تماما قول أي شيء حول الموضوع اكثر من انه موجود(١) . وعلى اي حال ، وايّ كان يطلب منا ان نعرّف الموضوع في حين اننا نتغاضى عن هذه الانطباعات ، فإنه يطلب منا شيئا ما منافٍ للعقل تماما . ومعنى هذا ، او فلنكن اكثر دقة ، هراء منطقيا ، ان هذا الطلب مساوٍ للسؤال عن ماهية علاقة الموضوع بالذات ، في وقت لا توجد فيه علاقة بين الاثنين على الاطلاق . وانت ياسيدي العزيز تسألني بالضبط هذا السؤال السخيف ، وتطلب مني ان اخبرك عن ماهية مادة لا تثير فينا اي احساس ، أي ان اخبرك عن لون وردة عندما لا يتطلع اليها اي انسان ، وما هي رائحتها عندما لا يشمها اي انسان . وهكذا دواليك . ان عبثية وسخافة سؤالك وطريقة

---

(١) اقتباس من علم المنطق المطبوع في لندن عام ١٩٢٩ وهو كما يلي :
« الشيء في ذاته يتمتع بلون فقط فيما يتعلق بالعين ورائحة فيما يتعلق بالانف وهكذا » المجلد الاول الكتاب الثاني ص ١١٣ .

عرضه الغريبة تحول دون كل الامكانيات لتقديم جواب معقول عليـــــه(١) .

وباقتفاء اثر ماخ ، الذي هو حاليا تلميذ حقيقي لباركلي (كيف لا وهناك « العلم الطبيعي للقرن العشرين ! ») فانك ياسيدي العزيز بوجــــدانوف سوف تقول : اذا كان الموضوع يستطاع ان يكون معروفا لنا فقط وبواسطة الاحاسيس وبالتالي المعاني التي يولدها فينا عندما يكون الموضوع في شكل ما علـى اتصال معنا . اذن لا حاجة منطقية بالنسبة لنا لكـي نعرف ان الموضوع له وجود مستقل عن هذه الاحاسيس والمعاني . اجبت في وقت سابق وفي المكان ذاته الذي حصلت منه على «تعريفي» للمادة(٢)، على هذا الاعتراض الذي يبدو الآن وبتعدد خصومات المثاليين الى حد كبير انه من السهل نقضه . ولكنك اما لا تستطيع او انك لا تحب تفهم الجواب . ولذلك فانني سوف اكرره في القسم الثاني من رسالتي هذه عندما اتعـــرض لفلسفة ماخ : ما دمت مجبرا وبشكل نهائي ((**على انتزاع الفهم عنوة**)) **منك** . الا انني سوف احلل واقدر اهم نقطة من « حججك النقدية » التي قدمتها في جدالــك معي .

لقد شكلت وبمهارة الفكرة الثالثة من « تعابيري الاصلية »: « بالنسبة (للاشياء في ذاتها . ج. بليخانوف) لصورها وعلاقاتها توجد صور وعلاقات متطابقة للظاهرة ـ كتطابق مبهم للاشياء التي

---

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) ولكن هذا هو بالضبط الذي يحاول السادة الاحاديون التجريبيون و « الرمزيون التجريبيون » الاجابـــة عليه . ولقد عاينت المحاولة التي قام بها ج. بيتزولت و ب. يوشكوفيتش للاجابة على هذا في مقالة « المذهب المثالي الجبان التي يتضمنها ذلك العمل » .

(٢) مقالة نقدية لنقادنا ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

تعيّنها » وحول هذه الفكرة تورد المقال الطويل التالي : [« يوجد هنا حديث عن « الصورة » و « العلاقات » للاشياء في ذاتها . وهذا يعني انها تتضمن افتراضا احداهما للاخرى . شيء ممتاز . وهل هي تملك فعلا مظهرا ؟ سوف يقول القاريء انـه سؤال سخيف. كيف يمكن للمادة امتلاك **صورة** بدون أن تملك اي **مظهر ؟** ولكن هاتين الكلمتين تعبران عن شيء واحد . وانا اظن كذلك ايضا . ولكن هذا ما قرأناه في ملاحظـات الرفيق بليخانوف في الترجمة الروسية لكتاب لودفيغ فيورباخ لانجلز .

ولكن المظهـر ، بالضبط هو النتيجـة لفعل الاشياء في ذاتها علينا . **وبصرف النظر عن هذا الفعل فإنها لا تملك مظهرا .** وبناء على ذلك ولتباين ذاك (المظهر) كما يوجد في شعورنا ازاء (المظهر) الذي يدعون ملكيته في الواقع ، فقد فشلوا في ادراك اي مفهوم يرتبط بكلمة (مظهر) ... وهكذا فالاشياء في ذاتها لايمكن ان يكون لها مظهر من اي نوع . ومظهرها يوجد فقط في وعي تلك الاناوات التي يمارس الفعل عليها »] (ص ١١٢ ، طبعة ١٩٠٦ العام الذي نشرت فيه مجموعة مقالة نقدية لنقادنا) .

وباستبدال كلمة مظهر في الاقتباسات اعلاه بكلمة (صورة) التي ترادفها ، وتتطابق معها في المعنى، يدحض الرفيق بليخانوف وبشكل مدهش الرفيق بيلتوف » اوليس ذلـك امر رائع ! بليخانوف يدحض وبشكل مدهش بيلتوف ، اي نفسه ! لقد قلت هـذا وبحقد عظيم . ولكن تابع ياسيدي العزيز : فالذي يضحك اخيرا يضحك كثيرا . تذكّر الظروف التي عبّرت فيها عن الفكرة التي تنتقدها وما ذا كان « مظهرها » الحقيقي .

لقد عبرت عنها في مناظرتي مع كونراد شميدت ، الذي عزا

الى المذهب المادي مبدأ هوية الموجود والتفكير . وقال مخاطبا إياي ، انني اذا كنت « جاداً » بالاعتراف بفعل الاشياء في ذاتها عليّ فيجب ان اعترف ايضا بأن المكان والزمان يوجدان موضوعياً وليس كصور تأمل خاص بالذات . واجبت على هذا كالتالي : « أن المكان والزمان هما صورتان للوعي ، وبناء على ذلك فإن خاصيتهما المميزة الاولى هي الذاتية ، التي كانت تقريبا معروفة بالنسبة لتوماس هوبز[1] Thomas Hobbes ، ولا ينكرها اي مادي معاصر . والسؤال الكامل هو : اليست بعض صور او علاقات الاشياء تتطابق مع هذه الصور من الوعي ؟ من الواضح ان الماديين يستطيعون تقديم جواب مؤكد على هذا السؤال فقط . وهذا لا يعني طبعا انهم يسلمون بتلك الهوية الزائفة (أو اكثر دقة المنافية للعقل) التي اندفع الكانتيون ومن بينهم الهر شميدت ضدها[2] . كلا ، أن صور وعلاقات الاشياء في ذاتها لا لا يمكن ان تكون على الصورة التي تبدو لنا ، اي كما تكون عليه بالنسبة لنا

---

(١) توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) أحد الماديين المحدثين . وأكبر أنصار الحكم المطلق قبل تقويضه . يقول ان كل علم فهو آت من الاحساس . ويعرف الاحساس بانه حركة في ذرات الجسم الحاس صادرة عن حركة في الجسم المحسوس . ويذهب هوبز الى أن للاجسام خاصتين ليس غيرهما **الامتداد والحركة. وان سائر الكيفيات المحسوسة ذاتية** . حتى الزمان والمكان فانهما صورتان من نوع الصور التي يحدثها فينا الامتداد والحركة . وباستطاعتنا الاحتفاظ بهما مع افتراض زوال الاجسام جميعا . **وذاتية** الكيفيات المحسوسة قضية لازمة من قوله ان مايحدث في العالم هو حركة فحسب ، فكل مايبدو في الشعور مغايرا للحركة ، **يكون ذاتيا** .

(٢) فيما يتعلق بمسألة هوية الموجود والتفكير يمكنني الان أن أشير الى عملي : القضايا الرئيسية للماركسية س . بترسبورغ ١٩٠٨ ص ٩ .

عندما تترجم فيرؤوسنا . فمعانينا لصور وعلاقات الاشياء ليست اكثر من مبهمات Hieroglyphics ، ولكن هـــذه المبهمات تعيّن بالضبط هذه الصور والعلاقات . وهذا امر كاف يسمح لنا بدراسة فعل الاشياء في ذاتها علينا ، وبالمقابل يمكّننا من التأثير عليها(١) .

فعلامَ يدور هذا المقطع كله ؟ يدور حول الشيء نفسه الذي تناقشت معك حوله اعلاه ياسيد بوجدانوف . اي ان **الموضوع في ذاته** Object in itself هو شيء وان الموضوع في مفهوم الذات هو شيء آخر تماما . والآن فإن السؤال هو : الست مخولا منطقيا استبدال كلمة « صورة » بكلمة « مظهر » التي هي واستنادا لك مرادفة لها ؟ دعنا نحاول ذلك ولنر ماذا يحدث . « ان المكـان والزمان هما مظهران للوعي . وانه بناء على ذلك فان خاصيتهما المميزة الاولى هي **الذاتية** Subjectivity ، التي كانت تقريبا معروفة بالنسبة لتوماس هوبز ، ولا ينكرها اي مادي معاصر » . انتظر لحظة ، كيف يمكن ان يكون ذلك ؟ وما هو هذا المظهر الذاتي للوعي ؟ انني استخدم الكلمة « مظهر » بمعنى الادراك البصري للموضوع الذي يوجد في وعي الانا . والمسألة هي احد مسائل « التأمل الحسي » للموضوع ، وهكـــذا فإن مناقشتنا للفظ « مظهر الوعي » يجب ان تعني ـ اذا كانت كلمة مظهر « هي في الحقيقة مرادفة لكلمـــة صورة ـ **الادراك البصري لوعي الذات** ولا شيء آخر اكثر من ذلك . ودع جانبا وللحظة السؤال ما اذا كان الادراك البصري من هذا النوع **معقولا !** والتفت انتباهك النيّر سيدي العزيز الى واقعة ان الادراك البصري هنا لوعي الشعور سوف يبرهن على انه المكان والزمان **ولكن هذا هراء** . وقـــد كان هذا غير معروف بالنسبة لتوماس هوبز طبعا . كما لا يعرفه اي

---

(١) مقالة نقدية لنقادنا ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

مادي . فما الذي قادنا الى هذا الدرب الاحمق ؟ انه الاعتقاد ـ الذي لا اساس له من الصحة ـ بقدرتك على تحليل المفاهيم الفلسفية . لقد صدّقناك عندما قلت ان كلمة « مظهر » هي مرادفة لكلمة « صورة » . ولقد استبدلنا ال « مظهر » بال « صورة » فحصلنا على خليط من الصعب وضعه في كلمات . وهكذا أليست كلمة «مظهر» لا تترادف مع كلمة «صورة» ؟ انها لا تعني ذلك . ان مفهوم كلمة « مظهر » لا يعني مفهوم كلمة « صورة » . وكما بيّن **هيغل** (١) في كتابه **((علم المنطق))** بشكل جيد فإن « صورة » الموضوع هي متطابقة مع « مظهره » فقط في **معنى ما ، معنى ظاهري ، معنى الصورة الخارجية** . وتقديم تحليل اكثر سوف يقودنا الى الاعتقاد بالصورة **((كقانون))** للموضوع أو كتركيب لها . وهذه المساهمة(٢) لهيغل بالنسبة للعقيدة المنطقية

---

(١) جورج فيلهلم فريدريك هيغل George wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف مثالي ألماني . يتفق مع فختي وشلنغ في وحدة الوجود ولكنه يرى أن **المطلق هو الوجود الواقعي بما فيه من روح لامتناه** أو مثال أو عقل كلي أو مبدأ خالق منتظم **وأن الطبيعة والفكر حالان له** . يظهر الفكر في وقت ما من أوقات تطور الطبيعة لانهما وجهان له متوازيان . الموجود حقا هو المركب من النقيضين الوجود واللاوجود . الموجود المعين هو المحدود المتناهي . ان الموجود لا يوجد الا بشروط معينة وعلى حال معينة وفي حدود معينة فاللامتناهي اذ يتحقق يتعين ويتحدد ويتميز ويتوحد . هذا الموجود الواحد يعارضه الوجود المنتشر في الكثرة . المطلق هو جملة العلل الجزئية النسبية . **والروح المطلق يباين نفسه فتظهر الطبيعة فهي اذن مظهره الخارجي الذي يعارضه** وينافيه وهي تتطور وفقا للمنهج الثلاثي أولا الطبيعة في ذاتها وثانيا الطبيعة لذاتها وثالثا الطبيعة في ذاتها ولذاتها والعقل الخالق كالعقل المتصور في الانسان يبدأ بما هو أكثر تجردا وأقل ادراكا أي بالمكان والمادة .

(٢) (ملاحظة من مجموعة الدفاع الى الهجوم) بالاشارة الى اسهام

للصورة كانت معروفة تقريبا هنا في روسيا عام ١٨٢٠ للناس الذين تعاملوا مع الفلسفة . ولاقناعك بهذا فانني ادعوك لقراءة المقتطف التالي من رسالة كتبها فينفيتنوف(١) D. Venevitinov الى الكونتيسة «ن. ن» قال بعد أن عرّف معنى العلم : « انك ترى الآن أن كلمة **صورة** لا تعبر عن المظهر الخارجي للعلم ، ولكن عن القانون العام الذي يجب ان يتبعه العلم » . (الاعمال المختارة لفينفيتنوف . س. بترسبورغ . عام ١٨٥٥ – ص ١٢٥) انه لأمر يبعث على الشفقة الكبيرة ياسيد بوجدانوف ، لأنك ليس على معرفة بذلك . وشكراً لفينفيتنوف الذي كان على معرفة ببعض سيدات روسيا الانيقات منذ ثمانين عاما مضت .

والآن هناك اكثر من سؤال : بأي معنى فعلا استُخدِمَ التعبير « صور الوعي » اثناء المجادلة مع كونراد شميدت ؟ وهل هو بمعنى **المظهر** الخارجي للوعي كما يقول فينيفيتنوف ؟ طبعا لا . لقد استخدمت كلمة « صورة » بمعنى « القانون » للوعي وبالمعنى المؤطر لها . ولذلك فلا مجال هناك لأن تكون كلمة « صورة » بالنسبة لي مرادفة لكلمة « مظهر » وسوف يكون المرء جاهلا كل شيء يتعلق بالفلسفة وعلى وجه الاطلاق اذا كان يقترح استبدال احدى هاتين الكلمتين بالاخرى كما اقترحت من أجل اظهاري بمظهر السخيف . من يضحك اخيرا يضحك كثيراً .

يتورط بعض الناس في محاججات طويلة لانهم وببساطة

هيغل هذا فانا لاأقول أنه أول من لاحظ هذا التمييز في مفاهيم « المظهر » و « الصورة » وانما اذكر فقط **أنه دافع عن هذا التمييز أفضل من مثاليين كبار اخرين .**

(١) ديمتري فلاديميروفيتش فينفيتنوف (١٨٠٥ – ١٨٢٧) شاعر روسي وفيلسوف من أتباع شيلنغ .

يستعملون كلمات في معان مختلفة . ومثل هذه المحاججات فارغة ولا طائل منها . ولكن الاكثر سقما والاكثر تفاهة هي المحاججات التي يلحق فيها المتنافس مفهوما محددا لكلمات مستقلة ومفردة، في حين ان منافسه يستخدم الكلمات نفسها ويلحق بها مفهوما غير محدد على الاطلاق . ويكون بالتالي قادرا على اللعب بها حسبما يعتقد انها ملائمة . ومن دواعي أسفي ، أنني مجبر الآن لعقد مثل هذه المحاججة معك . عندما استخدمت كلمة « صورة » **كنت اعرف** بالضبط ماذا يجب ان يفهم منها . في حين انك **لم تفهم** ماقصدته بسبب جهلك المدهش لتاريخ الفلسفة ــ ويبدو أنه لم يحدث لك حتى الآن شيء ما يستدعي الدراسة والتفكير ــ وسمحت لنفسك بالتلاعب بالكلمات . وكانت النتيجة كما كنت اتوقع فضح جهلك في « فقه اللغة » في مناقشات شاركني الملل فيها السادة القراء . وجعلت من نفسك سيدي العزيز أضحوكة ومثار هزء لأن فقهك اللغوي » فارغ المضمون . فما الذي أضطرك لفعل ذلك ولماذا ؟

ان « فقهك اللغوي » المثير للدهشة البالغة ، له شهرة في نطاق آخر أترك للقارىء وصفه فيما اذا لم يمل من تتبع مناظرتي معك .

وفي ذهني تلك المبهمات التي ذكرت في القسم ذاته من مقالتي التي آستشهدت بها والتي اعالج فيها أيضا مسألة صور الوعي .

وهذه المقالة (مرة اخرى حول المذهب المادي) يعود تاريخها الى بداية ١٨٩٩ . ولقد اقتبست كلمة مبهمات من سيخنوف(١) Sechenov الذي كتبها في مقالة « التفكير الموضوعي والواقع » Objective thought and Reality . في بداية التسعينات » .

« ومهما تكن المواضيع مستقلة بذاتها عن وعينا ــ دع انطباعاتنا

(١) ايفان ميكائيلوفيتش سيخنوف (١٨٢٩ ــ ١٩٠٥) عالم طبيعيات روسي ، وأب للفسيولوجيين الماديين .

عنها ان تكون اشارات اصطلاحية فقط ـ فعلى اية حال ، فان تشابه واختلاف الاشارات التي ندركها تتطابق لمشابهة واختلاف الواقع . وبكلمات اخرى ان المشابهات والاختلافات التي يجدها الانسان ضمن المواضيع التي يدركها هي مشابهات واختلافات واقعية . « ولاحظ ياسيدي العزيز أن الفكرة التي عبرتُ عنها في «مرة اخرى حول المذهب المادي» والتي زودتك بذريعة التلاعب بالكلمات بشكل فاضح ، هي متطابقة تماما مع الفكرة التي قدمها سيخنوف في المقطع اعلاه . وانا لم اخف على الاقل مشابهة افكاري لأفكار سيخنوف تلك ، بل على العكس من ذلك ، فقد اكدت ذلك في احدى ملاحظاتي للطبعة الاولى من ترجمتي لكتاب لودفيغ فيورباخ لانجلز (صدر عام ١٨٩٢) وبناء على ذلك فقد كانت لديك سيدي العزيز فرصة كاملة ، لتعرف انه في امور من هذا النوع فانني التزم بوجهة نظر علماء الفسلجة الماديين المعاصرين وليس لوجهة نظر العلم الطبيعي للقرن الثامن عشر ، واورد هذا بالمناسبة . والنقطة الرئيسية هنا هي : في الطبعة الجديدة لترجمتي للودفيغ فيورباخ المنشورة في الخارج عام ١٩٠٥ وفي روسيا عام ١٩٠٦ ، أعلنت انه في الوقت الذي اشارك فيه رأي سيخنوف حول هذه المسألة ، فإن مصطلحاته الفنية تبدو لي بطريقة او بأخرى غامضة .

وقلت « عندما يفترض هو آن انطباعاتنا هي فقط اشارات اصطلاحية للاشياء في ذاتها ، فكأنه كان يعترف بأن الاشياء في ذاتها لها نوع ما من « مظهر » غير معروف بالنسبة لنا . وهي متعذرة بالنسبة لوعينا . ولكن « المظهر » هو نتيجة فقط لفعل الاشياء في ذاتها علينا . **وبغض النظر عن هذا الفعل علينا فهي لا تملك المظهر** . وبناء على ذلك فإن مظهرها ـ كما يوجد في وعينا ـ

يتناقض مع «المظهر »المدعى بأنها تملكه في الواقع . وهكذا يفشل المفهوم الذي يرتبط بكلمة « مظهر » هنـــا . وان **المعرفـــة الوثوقية شسكولائيي**(١) تقوم علـــى اساس هـــذه الاغـــلاط واعرف ان السيد سيخنوف لم تكن لديه آية ميول نحو مذهب السيكولائية هـذا ، واقول الآن ان نظريته في المعرفة نظريـــة صحيحة تماما . ولكن يجب علينا الا تقدم اية تنازلات فيما يتعلق بالمصطلحات الفنية ازاء خصومنا الفلسفيين ، لأن ذلك يمنعنـــا عن التعبير بالدقة الكاملة(٢) . وانني اتكلم الآن وعلى نحو جازم ، ان تعليقي هذا يمكن تخفيفه على الصورة الثالثة : اذا كان الشيء في ذاته يملك **لونا** فقط عندما يكون في مجال الرؤية ورائحة فقط عندما يكون **مشموما** ، وهكذا دواليك ، اذن فإن في تسميته وعينا له باشارات اصطلاحية انما يقدم اساسا للتفكير الذي من وجهة رأينا بالنسبة للونه ورائحته الخ وكما توجد هذه في آحاسيسنا يطابق نوعا ما من لون في ذاته ، ونوعا ما من شم في ذاته ، وهكذا دواليك . ولإيجاز ذلك نقول ان نوعا من الاحاسيس في ذاتهـــا لا تستطيع ان تصبح مواضيعا لأحاسيسنا . وسوف يكون ذلك **تفنيت لآراء شيخنوف** التي اشاركه آياها . وبناء على ذلك فقـــد قلت في عام ١٩٠٥ انني كنت مصطلحات سيخنوف الفنية(٣) ،

---

(١) Scholastic مدرسي وأذاع هذه التسمية انسانيو القرن السادس عشر وهو قصد ينطوي على معنى محقر .

(٢) الصفحات ١٠٢ ــ ١٠٣ من الطبعة الاجنبية (من الدفاع الى الهجوم) وص ١١١ ــ ١١٢ من طبعة بترسبورغ .

(٣) أصبحت مقتنعا من طبيعة هذه المصطلحات الفنية غير المرضية عندما أعدت قراءة « نقد العقل الخالص » حيث مررت بالمقطع التالي في الطبعة الاولـــى « لكي يدل الـ Noumen **النومن** على موضوع واقعي غير ملتبس بكل الظواهر . فمن غير الكافي لي تحرير فكري من كل ظروف التفكير الحسي . وبالاضافة الى هذا الابد لي

ولكنني مادمت نفسي قد استعملت سابقا المصطلحات الفنيـــة الغامضة بطريقة ما فانني اسارع لتسجيل هذا كتحفظ . واضيف « ولأنه في ملاحظتي لأول طبعة لكتاب انجلز ، فقد ظللت اعبر عن نفسي بصورة غير دقيقة تماما ، ثم ادركت مؤخرا كم كان هذا الخطأ جسيما(١) » . وبعد هذا التحفظ فانه سوف يبدو لي ان اي سوء تفاهم سوف يكون مستحيلا . اما بالنسبة لك ياسيدي العزيز فحتى المستحيل يظل معقولا . فلقد اندفعت مرة ثانية لتلعب على الالفاظ بانيا هذا علي توحد المصطلحات الفنية التي استخدمها الآن وتلك التي استخدمتها سابقا ، وتلك التي رفضتها بنفسي لأنها غامضة بطريقة ما . والجمال في مثل هذا **« المذهب النقدي »** يبدو جليا لكل انسان غير منحاز ، ولا حاجة بي لوصفه . وعديد من خصومي في المعسكر المثالي هم الآن يقتفون مثالك . و «ينتقدون» **آرائي الفلسفية** باثارة الاعتراضات التافهة على ضعف مصطلحاتي الفنية التي اعلنت انها غير مرضية قبل آن يشرعوا اقلامهـــم « النقدية » . ومن المحتمل جدا أن بعض هؤلاء السادة المحترمين

من امتلاك بعض الاسس لتمييز شكل اخر من التفكير بعيدا عن الحسي ، حيث **يمكن فيه اعطاء موضوع مشابه** والا فان فكري سيكون فارغا رغم انه يخلو مـن التناقضات » . (نقد العقل الخالص . مترجمة من قبل م.م سوكولوف ص ٢٢٨ ملاحظة) وأود أن أؤكد بانه لايمكن أن يوجد شكل اخر من التفكير ، غير التفكير الحسي . ولكن هذا لايمنعنا من معرفة الاشياء من خلال الانطباعات التي تولدها فينا . ولكنك بالطبع لم تفهم هذا ياسيد بوجدانوف ولقد سببت لي كثيرا من المتاعب . والان ترى مامعنى البدء بدراسة الفلسفة بدءا من ماخ !.

والنومن : مقابل الظاهرة ويطلق على الشيء في ذاته . وهو الحقيقة المطلقة التي تدرك بالحدس العقلي لابالتجربة والادراك الحسي **وكانت** الذي وضع هـــذا الاصطلاح يقول ان هذه الحقيقة ، المطلقة التي تجاوز نطاق التجربة لاتدرك بالعقل النظري لان قوانين هذا العقل لاتحيط بالمطلق ولاتدرك الا الظواهر .

(١) لودفيغ فيورباخ . طبعة س . بترسبورغ ص ١١٢ .

يسمعون مني لاول مرة لماذا كانت هذه المصطلحات الفنية غير مرضية(١) ويجب عليهم أذن الا يصابوا بالدهشة اذا كنت لا أجيب على مجلدات أعمالهم بكثير او قليل . على الرغم من ان كل « نقد » جدير بنقد مضاد .

وبالعودة اليك يا سيد بوجدانوف ، فقد اشرت بمكر وحقد الى واقعة ا ن الطبعة الثانية من ترجمتي كتاب **لودفيغ فيورباخ** لانجلز ، قد نشرت في العالم ذاته ١٩٠٦ الذي نشرت فيه مجموعة اعمالي (**مقالة نقدية لنقادنا**) فلماذا اشرت الى هذا ؟ ذلكم هو السبب . انت نفسك كنت على معرفة بأنه من السخف بل ومن العبث التمسك بهذه التعابير التي اعلنتُ بنفسي انها غير مرضية قبل ان تكون موضع نقد من قبل خصومي . ولذلك فانك قررت ان تؤكد لقرائك انني في عام ١٩٠٦ قد « دحضت بشكل رائع » نفسي بنفسي باستخدامي مصطلحات فنيةمختلفةوبتزامن واحد . ولم تفكر انه من الضروري ان تسأل نفسك الى اية فترة زمنية

---

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) وبقولي هذا لااعني بأن نقادي سيكونون على حق اذا تابعت تمسكي بالمصطلحات الفنية القديمة . كلا وحتى في هذه الحالة فان اراءهم ستبقى تماما مبنية على اسس واهية . كما هي الحال بالنسبة لكل الاعتراضات التي قدمها المثاليون ضد الماديين . وفي هذا المجال ربما يكون الاختلاف في الدرجة فقط ولكن يجب التمييز بأن معارضي الشرفاء قد كشفوا عن درجة لامتناهية من الضعف ومع ذلك ليس عندي ادنى شك بان رفضي لمصطلح استخدمته مرة كان مسؤولا عن لفت انتباه هؤلاء السادة ولاول مرة لشيء بدأوا يصورونه على أنه الجانب الاضعف لماديتي ، وأنا مسرور جدا لاعطائهم فرصة لتمييز أنفسهم .ولكنني اسف جدا لانه حتى المعارض للمذهب المثالي مثل فلاديمير لينين ق. Llyin. فكر انه من الضروري ان يشن هجوما على أوهامي في كتابه المادية الخ . فلماذا وضع نفسه في هذه المناسبة ضمن نفس القوس مع أناس أعطوا البرهان القاطع والواضح على أنهم لم يخترعوا البارود ؟ .

ترجع تلك المقالة الجدلية التي ضمنتها مجموعة اعمالي التي طبعت في عام ١٩٠٦ . لقد قلتُ تقريبا ان تاريخها يعود الى اوائل عام ١٨٩٩ . ولم أجد الامر معقولا ان اصحح مصطلحات هذه المقالة الجدلية لأسباب ذكرتها تقريبا في مقدمة الطبعة الثانية من كتابي « **دراسة حول تطور المفهوم الاحادي عن التاريخ** » حيث كتبت « صححت هنا **الزلات والاخطاء المطبعية** التي ادرجت في الطبعة الاولى فقط . ولا ارى من الصواب اجراء اية تبديلات في **حججي** ، لسبب بسيط هو ان هذا العمل ، **عمل جدلي** وان القيام بتبديلات في مادة العمل الجدلي ، هو مثل الظهور امام منافسك بسلاح جديد في الوقت الذي تجبره على الاحتراب بسلاحه القديم وهذا امر غير مسموح به البتة ... »

ومرة ثانية زججت نفسك ياسيد بوجدانوف في متاهة . ولكن كانت المرة بسبب تجاهلك لصوت ضميرك الادبي ، الذي حذّرك بالتأكيد من انك تقترف خطأ جسيما باثارتك الاعتراضات التافهة على تعابير اعلنتُ في وقت سابق التخلي عنها . ويجب أن تذكر يا سيد بوجدانوف انه من الحماقة ، كل الحماقة ان يتجاهل الانسان وخزات ضميره الادبي .

وهكذا نرى أن « الرفيق بليخانوف » لم يدحض اطلاقا « الرفيق بيلتوف » ولكنك لم تكن قانعا برمي تناقض واحد امام بابي ، بل كانت لديك خطة اكبر وهدف اعظم . فبعد ان عزوت الى « الرفيق بليخانوف » التناقضات مع « الرفيق بيلتوف » تابعت المضي قدما : « ولكن وبعد لحظة فقد ثأر الرفيق بليخانوف لنفسه وبقسوة من الرفيق بيلتوف » (ص١٥ من المقدمة) فما الداعي للحقد مرة ثانية ؟ حسنا . ليكن ذلك وأتمنى لك حظا سعيدا ولكن من يضحك اخيرا يضحك كثيرا .

rira bien, qui rira le dernier.

انك تقتبس ملاحظاتي على كتاب **لودفيغ فيورباخ** وتقول تلك الملاحظات ومن ضمن الاشياء التي تقولها ان المظهر للموضوع يعتمد على تنظيم الذات . واقول فيها « لا اعرف كيف يرى الحلزون ، ولكنني متأكد من انه يفعل ذلك وبشكل مغاير للانسان» ثم اطرح هذا التساؤل : « ما هو الحلزون **بالنسبة لي** ؟ جزء من العالم الخارجي الذي يحدث بي اثرا في طريقة حددها تنظيمي . ولذلك فاذا افترضت ان الحلزون (يرى) بطريقة ما العالم الخارجي ، فانني مضطر للاعتراف والتسليم بأن « المظهر » الذي يقدم العالم الخارجي نفسه به للحلزون هذا المظهر نفسه قررته خواص هذا العالم الواقعي الموجود » .

وهذا الرأي بالنسبة لك (كماخي) يبدو لا اساس عقلي له . وعندما اقتبستَه وضعتَ خطاً تحت كلمة «خواص» وصرخت: « خواص » ! لماذا « الخواص » للمواضيع التي تضم صورتها و (مظهرها) ؟ بصورة عامة ان هذه الخاص وبشكل جلي هي « نتيجة تأثير الاشياء في ذاتها علينا ، وهي لا تملك خواصا ومن المتعذر ان تؤثر فينا . ولكن هل بالتأكيد ان مفهوم خواص ، له نفس الاصل التجريبي كمفهومي (المظهر) و (الصورة) ؟ وهل تكوّن مفهومه الشامل وجاء من التجربة بنفس طريقة التجريد ، ومن حيث جاءت خواص الاشياء في ذاتها ؟ ان خواصها موجودة فقط في وعي تلك الاناوات التي تؤثر عليها .

وانت تعرف الآن يا سيد بوجدانوف ، كم كنت غير مبالٍ في التصريح بأن (المظهر) مرادف (للصورة) . والآن فان لي الشرف ان الفت انتباهك الى انك تصرفت بلا مبالاة تامة في تعيين هوية « المظهر » للموضوع مع « خواصه » . ومجابهتي بالسؤال

التهكمي : من اين جاءت خاص الاشياء في ذاتها ؟ انت تعتقد ان هذا السؤال سوف يقلبني رأسا على عقب مادمت قد عزوت الي الفكرة بأن « خواص » الاشياء موجودة فقط في وعي تلك الاناوات التي تؤثر عليها . والحقيقة هي ، وعلى اي حال ، انني لم اقل هذه الفكرة ابدا ، التي تلائم منزلة المثاليين الذاتيين باركلي وماخ واتباعهما . لقد قلتَ شيئا ما مختلفا تماما وكما يجب ان تعرف انت الذي قرأت بل واقتبست ملاحظاتي على كتاب لودفيغ فيورباخ .

عندما قلتَ أن الحلزون يرى العالم الخارجي بصورة مغايرة للانسان ، علقتَ : « ان ذلك لايستتبع على اي حال ، ان خواص العالم الخارجي تملك فقط الدلالة الموضوعية . ليس ذلك اطلاقا . فاذا انتقل الانسان والحلزون من نقطة (أ) الى نقطة (ب) فان الخط المستقيم لكلا الانسان والحلزون يساوي اقصر مسافة بين النقطتين . واذا انتقل كلا **هذين المتعضيين** في خط منكسر **فانهما سوف يبذلان طاقة اكثر في حركتهما** . وهذا يعني ان **خواص المكان تملك ايضا دلالة موضوعية** . مع انها تبدو باختلاف المتعضيات في درجات مختلفة من التطور(١) » والا فبأي حق تنسب الي وجهة نظر المثاليين الذاتيين حول خواص الاشياء كشيء ما موجودة فقط في وعي الذات ؟ انك سوف تخبرنا الآن، ربما ان المكان ليس مادة . دعنا نفترض ذلك حقيقة ولنتكلم عن المادة .

بما انه ولمناقشة الفلسفة معك من الضروري التحدث بطريقة اكثر تبسيطا فسوف آخذ مثلاً : اذا استخدمنا كلمات هيغل Hegel المقتبسة فيما سبق ، وان الشيء في ذاته يملك لونا فقط عندما يُنظَرُ اليه ، ورائحة فقط عندما يُشَمُّ ، فمن الواضح وضوح الشمس انه بالتوقف عن التطلع اليه او شمه،

---

(٧٩) لودفيغ فيورباخ .ملاحظات ص ١١٢ ـ ١١٣ .

فاننا لا نجرّده من القدرة على الاثارة فينا مرة ثانية الاحساس باللون عندما نتطلع اليه مرة ثانية ، او الاحساس بالشم عندما نقرّبه ثانية من أنفنا ، وهكذا دواليك . هذه القدرة هي خواص الشيء ، كالشيء في ذاته . اي خواص **مستقلة** عن الذات . هل ذلكم واضح ؟

وعندما تشعر بميل لترجمة ذلك في لغة فلسفية ، فاتجه الى هيغل — فهو ايضا مثالي ولكنه ليس ذاتيا — وفي تلك الحالة فان هذا الانسان الموهبة سوف يشرح لك ان كلمة « خواص » في الفلسفة لها أيضا معنيان : خواص الشيء **المعطى البادى** ثم معناها **في علاقتها بالنسبة للآخرين** . ولكن مفهوم الخواص لم يستنفد عند هذا الحد . لماذا يكشف شيء ما عن نفسه في طريقة ما وبعلاقته مع الآخرين ، في حين أن شيئا آخر سوف يكشف عن نفسه بطريقة مختلفة ؟ من الجلي ، لأن هذا الآخر الشيء **في ذاته** ليس هو نفس الشيء الاول(1) .

وذلك هو كواقع . مع ان الشيء في ذاته يملك لونا فقط عندما ينظر اليه آذن فلنأخذ بهذا الشرط جدلا ، اذا كانت الوردة حمراء ودقيق الذرة ازرق . فمن الواضح أن السبب لهذا التميز يجب أن يكون مرئيا في تمايز الخواص التي يتضمنها الشيء في ذاته . سواء دعونا الاول وردة او دعونا الثاني دقيق ذرة ، وكلاهما مستقلان عن الذات الناظرة اليهما .

والشيء في ذاته ، بتأثيره علينا ، يثير فينا سلسلة من

---

(1) للشيء خواص وميزات . وهي أولا : علاقاته بالاخرين ... ولكن ثانيا في هذا Positedness فان الشيء يكون في ذاته ... ان الشيء يتمتع بخاصية التأثير على هذا أو ذاك ويكشف نفسه في شكل غريب في علاقاته » علم المنطق من المجلد الاول الكتاب الثاني ص ١١٦ عام ١٩٢٩ .

الاحاسيس نشكل على اساسها معانينا عنه . وحالما نملك هذا المعنى ، فان الشيء في ذاته يتخذ ميزتين مزدوجتين : **يوجد اولا في ذاته ، ويوجد ثانيا في مفهومنا عنه** . ودعنا نقل ان خواصه ، وتركيبه ، توجد بالضبط في الطريقة ذاتها : أولا في ذاتها ، وثانيا في مفهومنا عنها . وهذا كل ما يتعلق بهذا .

وعندما ذكرت آن « المظهر » للشيء كان فقط نتيجة تأثيره علينا كانت في ذهني خواص الشيء كما هي **منعكسة في ادراك الذات** . Im subjectiven Sinne aufgefasst كما يود هيغل ان يقول ، اما ماركس فسوف يقول : كما هي موجودة مترجمة داخل لغة الشعور الانساني وعلى اي حال ، وبذكر ما سبق ، فانني ابعد ما يكون عن التأكيد بأن خواص الاشياء توجد فقط في ادراكاتنا . بل على العكس ، وذلك بالضبط سبب كراهيتك لفلسفتي ، لأنها لا تتردد في الاعتراف (بالاضافة الى وجود الموضوع في ادراك الذات) بوجود **الموضوع في ذاته** Object - in - itself مستقلا عن وعي الذات وتؤكد **هذه الحالة ـ النادرة جدا ـ وبكلمات كانت** ، انه من العبث الاستنتاج بأن الظاهرة توجد بدون تلك التي تبدو بها(١) .

وقال لنا أناس يتخذون موقفا وديا من المثالي الاحادي ماخ ، وعلى طريقة فيرفون(٢) ، وآفيناريوس وآخرون «ولكن هذه ثنائية » . وانا نجيب « لا » ياسادتي الاعزاء ، لا توجد ادنى

---

(١) نقد العقل الخالص ص ٧ من المقدمة .

(٢) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) والان فان بعضا من أولئك الذين يفكرون مثل ماخ وكمثال على ذلك .ج. بيتزولت يرغبون في التنصل من فيرفورن في حين أنهم يسلمون بمذهبه المثالي . وبالفعل فان فيرفورن مثالي ولكن من طراز ماخ وأفيناريوس وبتزولت وهو مقنع اكثر من هؤلاء . وهو غير مرعوب من النتائج المثالية التي اخافتهم وجعلتهم يحاولون تفاديها باحادية مطلقة سخيفة.

رائحة من الثنائية هنا ، والحقيقة انه يمكن توجيه اللوم لنا بالثنائية فيما لو فصلنا الذات ومعانيها عن الموضوع . ولكننا لم نقترف هذه الخطيئة . قلت في مكـــان سابق ان وجود الذات يفترض ضمنا أن الموضوع قد وصل درجة معنية من التطور . ماذا يعني هذا؟لا اكثر ولا اقل من ان **الذات نفسها هي احد الاجزاء المكوّنة**(١) **للعالم الموضوعي** . وقد علق فيورباخ بذكاء : « انني اشعر وافكر ، ليس كذات مضادة للموضوع ، ولكن **كذات ــ موضوع** ، كموجود مادي واقعي . بالنسبة لي الموضوع ليس فقط موضوع ادراك ، انـــه ايضا الشرط الاساسي والضروري لادراكي . آن العـــالم الموضوعي لا يوجد فقط خارج نفسي ، إنه يوجد ايضا داخلي ، في جلدي ، الانسان ليس الا جزءاً من الطبيعة ، جزءا من موجود ، ولا مجال بناء على ذلك لتناقض بين تفكيره والوجود » .

ويقول في مكان آخر « بالنسبة لنفسي فانا موضوع نفسي ، وبالنسبة للآخرين فأنا موضوع فسيولوجي »(٢) .

واخيراً يكـــرر « جسمي ككـــل هو « نفسي » ، ماهيتي الحقيقة . وليس كما يعتقد البعض آن آلنفس موجود مجرد ، بل هي موجود حقيقي ، هذا الجسم » والآن فاذا كانت الحال هذه (ومن وجهة نظر مادية ، وهي فعلا) فليس من الصعب الفهم بأن « التجارب » الموضوعية هي واقعيا لا شيء آخر سوى الوعي الذاتي للموضوع . شعورها لنفسها ، كشعورها بذلك الكـــل الشامل (« العالم الخارجي ») **التي تنتمي نفسها اليها . ان** الكائن الحي الذي منـــح التفكير لا يوجـــد فقط « في ذاتـــه » وليس فقط « من اجل آخرين » بل ايضا « من اجل ذاته » (في

---

(١) Constitut يكون ويترجمها بعضهم بالناظم والمقوم . والذين يترجمونها بالناظم ينطلقون من أن الناظم عند **كانت** مقابل للمقوم . (المعرّب)

(٢) مجموعة من الدفاع الى الهجوم ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

وعي الكائنات الحية الاخرى) . وأنت يا سيد بوجدانوف لاتوجد فقط ككتلة معطاة من المادة ، وليس فقط في ذهن « اناتولي » المبارك ، الذي يعتبرك مفكرا شهيرا ، بل توجد أيضا في ذهنك الخاص مدركا ان كتلة المادة التي تتركب منها ليست جسما آخر الا انت يا سيد بوجدانوف[1] . وهكذا فان ثنائيتنا الصورية انقلبت لتصبح احادية[2] جلية . وليس ذلك كل شيء . انها الحقيقة الوحيدة ، أي الاحادية المعقولة الوحيدة . والا فكيف يحل تناقض الذات والموضوع في المذهب المثالي ؟ يدّعي المذهب المثالي ان الموضوع هو فقط (تجربة) الذات او بكلمات اخرى ان الموضوع لا يوجد في ذاته ، وعلى أي حال ، وكما قال فيورباخ ان هذا لا يحل المعضلة ، انه ببساطة يتحاشى حلها[3] .

وكل هذا سهل كسهولة ا. ب. ت. ومع انها ليست هي الوحيدة التي ظلت ((**غير معروفة**)) لك يا سيد بوجدانوف ، فانها ظلت أيضا ((**غير قابلة للمعرفة**)) بالنسبة اليك . لقد تفسّدت في شبابك الباكر من قبل **ظئرك**[4] (wet - nurse) الفيلسوف ماخ . ومنذئذٍ فأنت غير قادر ابدا على ادراك حتى اسهل واوضح الحقائق في المذهب المادي المعاصر . ولذلك فانك عندما تشن هجوما مضادا

---

(١) (ملاحظة من مجموع الدفاع الى الهجوم) ويمكن الاستدلال من هذا على العلاقة الوثيقة مابين مادية فيورباخ وتعاليم سبينوزا .

(٢) Monism أحادية ١ ـ لفظ ابتدعه فولف للدلالة على المذهب الذي يرد الكون كله الى واحد كالروح المحض أو الطبيعة المحضة . ٢ ـ في الميتافيزيقا : عدم انقسام الموجود بالذات وانفصاله عما سواه . ٣ ـ يطلق على التصور الهيغلي للكون وهو القول بأن المطلق هو الوجود الواقعي وأن الطبيعة والفكر حالان له .

(٣) القضايا الرئيسية للماركسية ص ٩ .

(٤) الظئر : المرضعة لغير ولدها (المترجم) .

على واحدة او اخرى من هذه الحقائق السهلة والواضحة تقول ان كتـــاباتي تستدعـــي في ذهنـــك فورا « صورة » مؤسفة تجعلك تحت تأثير هذه « التجربة » تصوّت كالمغفل الذي انقذ الكابيتول وتبدأ باثارة معارضات ضدي نشرت اضطرابا مزعجا في الافكار ومللاً ضارا على مدى بعيد .

في مسرحية **تاجر البندقية** (Merchant of Venice) **لشكسبير** يقول باسانيو « ان اسبابه مثل حبتي قمح مخبأتين في كديسين من التبن . وانك سوف تبحث عنهما طوال النهار وعندما تجدهما ، تجد انهما لا تساويان الجهد المبذول » والحقيقة يجب ان تقال يا سيد بوجدانوف . وانت لا تحمل اي مشابهة لباسانيو والاكثر من ذلك ، فان الامر فاسد فيما يتعلق بالمقدمة الفلسفية التي مضى عليها اكثر من مئة وخمسين عاما واصبحت طي النسيان منذ امد طويل . ومع ذلك فانك تعتبرها كما لو انها غمار حصاد حديث من « العلم الطبيعي » فهل من المسر ان تبحث بين فضلات الفئـــران ؟

وانت محتار لانني لم اكن متسرعا في التورط بجدال معك...

ولكنني كنت ناسيا انك لست « الناقد » **الفاشل** الوحيد.. لماركس وانجلز ، **وانه تنقصك الشجاعة** . وفي حين انك تنتقد آراءهما الفلسفية فانـــك تحاول اقناع قرائك بأن خلافـــك ــ وبالتحديد ــ هو معي فقط وتقدمني على نطاق انني تلميذ لبارون هولباخ ! وتقديمك هذا ــ وهو شيء يجب ان نقوله ــ ينقصه الصدق ، وهو يضطرني لتذكيرك مرة ثانيـــة ، بالايام السعيدة الخوالي لعام ١٩٠٥ (وهي على اي حال ليست بعيدة الذكرى) عندما كنتَ لاتزال غرا تماما وكنت لاتعرفني كانسان يشارك انجلز آراءه الفلسفية . وانت نفسك تعرف يا سيدي العزيز انك كنت آنئذٍ اقرب للحقيقة ، مثلـــك مثل اي قارىء

بسيط لا يعرف هذا . وسأقوم بتقديم مقاطع طويلة من كتاب انجلز **حول المادية التاريخية** Über historischen Materialismus التي اقتبستها تقريبا في رسالتي الاولى . وفي القسم الاول من مقالة انجلز (من ضمن الاشياء الاخرى) سوف نركز على دفاع المذهب المادي ضد اللاادريين .

لندع جانبا تعقيب انجلز النقدي المتعلق بآراء اللاادريين حول وجود الله (كونه لا علاقة له بالموضوع هنا) وسوف اقتبس معظم ما يقوله حول مسألة الشيء في ذاته وامكانية معرفته من قبلنا .

استنادا الى انجلز فان اللاادري يسلم بأن كل معرفتنا مبنية على المعلومات (Mifleilungne) التي تصلنا عن طريق حواسنا الخارجية . ومع اعترافه بهذا فان اللاادري يسأل : كيف يتأتى لنا ان نعرف ان حواسنا تعطينا المعاني الصحيحة للاشياء في ذاتها التي ندرك بواسطتها ؟ اجاب انجلز على هذا بذكر كلمات من فاوست Im Anfang war die that : (Faust) **(في البدء كان الفعل)** ثم تابع « منذ اللحظة التي نبدأ باستخدامنا الخاص لهذه المواضيع وطبقا **للكيفيات** التي تدركها فيها فاننا نضع ادراكاتنا الحسية كرائز معصوم عن الخطأ للدلالة على صحة الامور . واذا كانت هذه الادراكات خاطئة فان تقديرنا للاستخدام الذي يمكن توجيه الموضوع اليه لابد ان يكون خاطئا ايضا ، وبالتالي فان محاولتنا لابد ان تفشل . ولكن اذا نجحنا في انجاز هدفنا ، واذا وجدنا ان الموضوع يتفق بالفعل مع فكرتنا عنه ، ويجيب فعلا على الغرض الذي نرمي اليه . اذن فان ذلك هو دليل وضعي على ان ادراكاتنا له ولكيفياته حتى الآن تتفق مع

الواقع خارج انفسنا »(١) .

ان الاخطاء في أحكامنا المتعلقة بكيفيات الاشياء المدركة تحدث (وبرأي انجلز) لأن الادراكات التي نولدها كانت اما سطحية او ناقصة ، او مرتبطة بنتائج ادراكات اخرى بطريقة لم يؤكدها الواقع . ويتابع انجلز « وطالما اننا نأخذ الحيطة والحذر في تدريب واستخدام حواسنا الخارجية بدقة ونحتفظ بأفعالنا داخل حدود سبق تعيينها من قبل ادراكات عملت بدقة واستخدمت بدقة ، فان النتيجة لعملنا سوف تبرهن على ان احاسيسنا تتطابق بالنسبة للطبيعة الموضوعية للاشياء المدركة . ولم نتوصل حتى الآن في مثال واحد الى النتيجة التي تقول ان ادراكاتنا الحسية المنظمة علميا تبعث في اذهاننا افكارا فيما يتعلق بالعالم الخارجي لها طبيعة مباينة للحقيقة ، أو إن هناك عدم تساوق متضمَن بين العالم الخارجي وادراكاتنا الحسية له .

وعلى اي حال ، فان **« اللاادري الكانتي الجديد »** لن يسلّم بذلك . فهو يجيب انه اثناء ما يمكن أن ندرك بدقة كيفيات الشيء، فاننا لا نستطيع بواسطة اي ادراك حسي او عملية عقلية ان نقبض على الشيء في ذاته ، الذي يكون أبعد من معرفتنا . ولكن هذه الحجة ، مثلها مثل حبتي الفاصوليا المتشابهتين تماما مع مايظنه ماخ عن الشيء في ذاته . ولكن هذا لا يزعج انجلز ، فهو يقول ان هيغل اجاب منذ زمن بعيد على هذا : « **اذا كنت تعرف كل اعراض الشيء ، فانك تعرف الشيء نفسه** » . ولا شيء يبقى الا الواقعة التي قالت أن الشيء يوجد خارجنا . وعندما تعلمك حواسك عن تلك الواقعة فانك تقبض على آخر بقية من الشيء في ذاته واضاف انجلز الى هذا أن معرفتنا في عصر **كانت** بالنسبة

---

(١) ماركس وانجلز ، الاعمال المختارة المجلد ٣ ص ١٠١ (دارموسكو)

للاشياء المادية كانت مجزأة جداً ، لدرجة انه كان وراء كل واحدة منها شيء في ذاته غامض ومشكوك فيه . ولكن الواحد تلو الآخر [...] من الاشياء قد قبض وحلل ، والاكثر من ذلك اعيد استخراجه بتقديم العلم الجبار « وما نستطيع استخراجه فاننا بالتأكيد لا نستطيع اعتباره شيئا غير معروف » .

لي الشرف ان اخبرك يا سيد بوجدانوف ـ اذا لم تكن فعلا قد لاحظت ذلك ـ ان انجلز هنا ، وبكلمات قليلة ، دفع الى الامام المبادىء لنظرية المعرفة ذاتها التي ادافع عنها حتى الآن ، وسأستمر في الدفاع عنها . واعلن سلفا استعدادي بالتخلي عن جميع آرائي حول نظرية المعرفة لو اثبتَ انها متناقضة مع هذه المبادىء التي أؤمن بها بشكل جازم واثق في حقيقتها الثابتة . واذا كنت تعتقد ان بعض التفاصيل ـ من الدرجة الثانية او الثالثة حسب الاهمية ـ لنظريتي في المعرفة تختلف بالواقع عن رأي انجلز فالرجاء اثبات ذلك . وعندها لايهم مدى التعب في النزاع معك . واذا كنت تنطلق من هذا الاساس الواهي فانك غير واجد ذلك . وفي غضون بحثك عن ذاك فانني ادعوك « لايقاف استعاراتك المجازية » واعطنا جميعا نحن قراءك الراضين وغير الراضين جوابا للسؤال التالي : **هل تشارك في الرأي الآراء المادية لانجلز كما عبّر عنها في الاقتباسات أعلاه ؟** .

ولكن تذكر اننا نريد جوابا بسيطا ، لهذا «السؤال اللعين» وبدون اية « **استعارة مجازية** » او « **اوهام فارغة** » وبما انك مدمن على « الاوهام الفارغة » و « الاستعارات المجازية » غير الضرورية **فانني احذّرك ايضا من التمسك بكلمات مفردة** . ولك ان تتحدث في الجوهر . **وعلى هذا الشرط الوحيد** فاننا نستطيع مناقشة الموضوع وببعض الفائدة للجمهور القارىء . واذا تُفنّد

هذا الشرط فان مناظرتنا سوف تتبسط لادنى حد .

نعم لديّ اسبابي الخاصة لقول هذا ، فأنا لديّ فكـرة جيدة عن طريقة تفكيرك الفلسفي (اياه) وانني اتنبأ بامكان التحويل او التحوير في الكلمات من قبلك .

قال انجلز انه لم يعد من الممكن بعد الآن الاعتقاد ـ كما كان الحال ايام كانت ـ بأن خلف كل شيء يشكل جزءا من الطبيعة حولنا يوجد نوع ما من الشيء في ذاته مخفي وغامض وبعيد عن معرفتنا . ومن وجهة النظر هذه فانك يا سيد بوجدانوف قادر على وضع مفكر الماركسية الكبير في نفس المقولة كماخ لأنه **انكر** وجود الشيء في ذاته . ولكن مغالطة مثل هذه هي مغالطة مثيرة للشفقة الكبيرة وهي غير جديرة بالركون اليها .

وجلي تماما من اعتراف انجلز المقولـي لـ « **الواقع خارج انفسنا » الذي يمكن او لا يمكن ان ينطابق مع فكرتنا عنـــه** ، واستنادا لمبدأه ان وجود الاشياء ليس مقتصرا على وجودهـــا في ادراكاتنا . فان انجلز ينكر **فقط** وجود **الشيء في ذاته الكانتي** ، اي فقط ذلك الذي لم يزعم انه خاضع الى قانون العلة وهو خارج عن نطاق معرفتنا . ومرة ثانية فانني هنا على اتفاق تام مع انجلز . ويمكنك التحقق من ذلك بسهولة وذلك بامعان النظر في مقالتي ضد كونراد شميدت التي اعيدت طباعتها في مقالة نقدية لنقادنا ، والتي اشرت اليها ابان مناظرتي معـــك . واظن انه لا حاجـة لـ « مراوغة » في هذا المجال . فالحقائق عيانية .

وبالتطابق مع افكار انجلز ، المقتبسة في بداية رسالتي فان **الوحدة الواقعية للعالم** الموجود باستقلال عن افكارنا تكمن وبالدقة **في ماديته** . وهذه بالضبط هي وجهة النظر التي قدمتهـــا في احترابي مع الكانتيين الجدد ، والتي استخدمت كذريعة لتهجماتك

« **سقيمة التصور** » ضد تعريفي للمادة .

ان للمنطق قواعده الخاصة . وان كل « الاوهام الفارغة » واهنة امام هذه القواعد . واذا كنت ترغب سيدي العزيز ان تكون ماركسيا ، فيجب عليك وقبل كل شيء ان **تثور ضد استاذك** ماخ ، وأن « تحني » رأسك احتراما لكل ما يحاول « حرقه » ويجب أن تعترف بأن « الاجسام » ليست هـــي فقط الرموز المنطقية لمركبات الاحاسيس بل أنها هي اساس هذه الاحاسيس وتوجد مستقلة عنها . وليست هناك طريقة اخرى للخروج من هذه الورطة . فالانسان لا يستطيع أن يكون ماركسيا في حين انه يرفض المبادىء الفلسفية للماركسية .

وان شخصامثل ماخ، يعتبر الاجسام هي ببساطة رموزمنطقية لمركبات الاحاسيس ، يجب أن يشارك وبشكل محتم جميع المثاليين الذاتيين المصير الذي أصابهم : فهو سيصل الى احادية مطلقــة او انه في محاولته تفادي هذا سوف يقع في شراك تناقضات لا حل لها . وذلك ما حصل لماخ . اولا تؤمن بذلك يا سيد بوجدانوف ؟ سأثبت لك ذلك بكل طيبة خاطر . لانني في الوقت الذي اكشف فيه عن ضعف استاذك ، اكشف فيه عن ضعفك « الفلسفي » . ولا يمكن ان تكون الصورة افضل من الاصل ابدا . وبعد هذا فانه يسرني ان اتعامل مع الاصل لأن ذلك افضل ، فعلى الاقل يجد الانسان أصالة ما ، وخاصة اذا كـــانت الصورة « معتمــة » كتعتيم امثلتك « الاحادية التجريبية » .

القسم الثاني

وهكذا فانني أودعك الآن ، سيدي العزيز ، وامضي الى ماخ . حسنا لقد القيت عن كاهلي حملا ثقيلا . وانا الآن واثق من ان القاريء سيتنفس الصعداء ايضا .

ان ماخ يرغب في منازلة الميتافيزيقا . وان معظم القسم الاول من كتابه ، **تحاليل الاحاسيس** ، هو مكرس لـ « تعقيبات تمهيدية ضد الميتافيزيقا » وعلي اي حال ، فان هذه التعقيبات التمهيدية تدل على ان بقايا الميتافيزيقا المثالية فيه عنيدة جدا .

وهو نفسه يصف ما الذي دفعهبالضبط الىافكاره الفلسفية والصفة التي اتخذتها **فكتب** يقول

« عندما كنت فتى يافعا (كنت آنذاك في الخامسة عشرة من عمري) وجدت ذات مرة في مكتبة والدي مؤلف **((كانت))** : **(مقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة)** The prolegomena to every future metaphysic وظللت اري هذه الحادثة دائما ، كحدث سعيد في حياتي . فقد تركت لدي انطباعا كبيرا ودائما ، وهو حدث لم أمر بتجربة مماثلة له طوال حياتي اثناء قراءتي للاعمال الفلسفية . وفجأة ادركت بعد سنتين أو ثلاث سنوات وفيما بعد ، الدور السطحي الذي لعبه « الشيء في ذاته » . وفي يوم صيفي جميل ، وعندما كنت اتنزه في الهواء الطلق بدا لي

العالم كله في الحال انه مركب واحد من الاحاسيس المترابطة بعضها ببعض ، وان « أنيتي » هي جزء من هذا المركب . جزء تترابط فيه هذه الاحاسيس بشكل أكثر قوة . ومع انني لم افكر بهذا مليا وكما ينبغي الا فيما بعد ، فان هذه اللحظة كانت لها اهمية حاسمة على وجهة نظري الشاملة للعالم »(١) .

ونستطيع أن نرى من خلال هذا أن تفكير ماخ اتبع ذات **الاتجاه لتفكير فختي ، الذي اتخذ في وقت ما ايضا ، مذهب «كانت» المتعالي** (الترانسدنتالي)(٢) كنقطة انطلاق لوجهة نظره ، وخلص فجأة الى النتيجة ذاتها بأن **«الشيء بالذات**(٣) قد لعب دورا «سطحيا» تماما . وعلى أي حال ، فقد كان فيختى يملك معرفة فلسفية جيدة في حين أن ماخ يقول عن نفسه انه يستطيع تخصيص وقته للفلسفة اثناء نزهاته يوم الاحد فقط وفي نزهاته « في الهواء الطلق(٤) » !

وبناء على ذلك ، فإن افكار فختي الفلسفية تجسدت في نظام

---

(١) ملاحظة من ارنست ماخ « تحليل الاحاسيس » ص ٣٤ .

(٢) يقول الاستاذ يوسف كرم في كتابه القيم « تاريخ الفلسفة الحديثة » (ص ٢٢٠) ان كانت « يعتبر مهمة نقد المعرفة منحصرة في تبين ماهو ات من خارج ومايضيفه اليه الفكر من عنده . وهذا الذي يضيفه الفكر أي الصورة في المعرفة يسميه Transcerdental ويعرّفه بأنه معنى أو مبدأ ذاتي للفكر متقدم على على التجربة تقدما منطقيا لازمنيا ووظيفته جعل التجربة ممكنة » . ويترجم الاستاذ يوسف كرم هذا اللفظ بالصوري في مقابل المادة الاتية من الخارج ويترجم اللفظ Transcendant بالمفارق . ونحن نؤثر ترجمة (Transcerdental) بالمتعالي وهو عند **كانت** ضد التجريبي تارة ، والاعلى تارة ، والميتافيزيقي أخرى .
(المترجم) .

(٣) « الشيء بالذات » عند كانت الشيء بالذات يجاوز بطبيعته نطاق التجربة والادراك الحسي وهو ممتنع علينا . (المترجم) .

(٤) Erkenntins und Irrtum, Leipzig verwort, S. VI-VII.

منهجي واضح ، مع انها عانت من تناقضات داخلية ، في حين ان نزهات ماخ « المضادة ــ ميتافيزيقيا » يوم الاحد « في الهواء الطلق » كانت لها نتائج سيئة تماما .

واحكم بنفسك . العالم كله حول ماخ « العالم كله وفي الحال » بدا له انه مركب واحد من الاحاسيس ، وان « آنيته » جزء من هذا المركب . واذا كانت « الانا » هي فقط جزء من العالم فمن الواضح ان جزءاً تافها من احساسات المركب الدنيوي موجود « خارج الانا » وان العالم الخارجي بالنسبة له « اللاانا » Non - ego فما هي حصيلة هذا ؟ انها حالة «أنا» و « اللاأنا » او الذات والموضوع ، او انها عين التناقض الذي وكما علق عليه انجلز بتبرير مقبول ، هو المسألة الجوهرية لكل الفلسفة الحديثة، والذي شرّب ماخ بفكرة ازدراء طاغية ضد الميتافيزيقا ورغب بالسمو فوقها ، وبالفعل فإن نتيجة نزهاته يوم الاحد لم تكن سيئة اطلاقا ، وعلى اي حال لم يكن هذا هو النتيجة الوحيدة ، وكما نرى توآ من توسطات ماخ « في الهواء الطلق » حيث توجد نتائج لا تقل عنها جدارة بالملاحظة .

وطالما ان تناقض الذات والموضوع (الانا ، والعالم الخارجي) هو معطى Given فيجب ان يكون محلولا بطريقة ما . ومن اجل هذا فإنه من الضروري وبالتأكيد شرح ماهية العلاقات الصحيحة بين العنصرين اللذين يشكلان التناقض . يصرّح ماخ بأن العالم كله هو مركب واحد من الاحاسيس المترابطة بعضها ببعض ، ومن الجلي انه يعتقد بأن هذا هو الجواب الذي جدّ في طلبه لمسألة العلاقات بين « الانا » والعالم الخارجي ، والعالم الخارجي و « الانا » . ولكنني اسأل وبكلمات من هايني[1] « Heine »

---

(١) هنريخ هايني Heinrich Heine (١٧٩٧ ـ ١٨٥٦) شاعر الماني .

هل ذلكم هو الجواب فعلا ؟

دعنا نفترض ان الاحاسيس التي تتألف منها « الانا » هي بالفعل « مترابطة » مع الاحاسيس التي تشكل العالم الخارجي.

ولكن لا توجد في هذا الافتراض حتى اشارة الى صفة هذا الترابط . وماخ كمثال على ذلك لا يوافق على الاحادية المطلقة وهو يقول : (es gibt keinen isolierten Forscher) ليس هناك شيء من هذا القبيل كباحث معزول(١) . وطبعا هو على صواب . ويكفي أن نفترض ان هذين هما باحثان فقط كي نجد انفسنا محاصرين من جميع الجوانب بتلك الاسئلة الميتافيزيقية التي كان ماخ مشوقا للانتهاء منها بالانقلاب الشهير في « الهواء الطلق » . وسوف ندعو باحثينا الاثنين : ا و ب . وكلا ا و ب مرتبطين بالمركب الكبير من الاحاسيس ـ الذي اكده لنا ماخ ، مع انه لم يبرهن على تأكيده بأية طريقة وعلى الاطلاق ـ الذي يشكل الكون ، « ومن الممكن السؤال : هل يستطيع ا و ب ان يعرف احدهما بوجود الآخر ؟ للوهلة الاولى يبدو السؤال سطحيا في الغالب . فلا شك في أن كلا منهما يعرف بوجود الآخر لأنه ان لم يكن يعرف كل منهما بوجود الآخر فإن (كل واحد منهما) سيصبح في علاقته مع الآخر شيئا في ذاته من المتعذر التأثير فيه ومن غير الممكن معرفته اي ممتنعا وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . وشيء من هذا القبيل اعلن في ذلك الاحد على انه غير موجود عندما بدأ العالم كله لماخ كمركب من الاحاسيس . ولكن المسألة اكثر تعقيدا ، وعلى وجه الدقة عندما يصبح فيه الباحث أ معروفا من قبل الباحث ب او بالعكس. فاذا علم أ بوجود ب ، فإن هذا يعني أنه يجب ان يكون لديه

---

(١) Erkenntnis und Irrtum.

معنى محدداً(١) (Adefinite Notion) عنه ، وطالما ان هذه هي الحال ، فان (ب) لا يوجد فقط في نفسه ، كجزء من مركب العالم الكبير من الاحاسيس ، بل يوجد ايضا في عقل ا ، الذي هو ايضا ليس أكثر من جزء في هذا المركب . اي ان الباحث ب هو بالعلاقة الى الباحث ا **موضوع ظاهري** (External) بالنسبة (أ . ويولّد فيه بعض الانطباعات . وهكذا فاننا لا نواجه فقط تناقضا بالنسبة للذات والموضوع ، بل نواجه ايضا بفكرة ما عن كيفية حله . الموضوع يوجد خارج الذات ولكن هذا لا يقف في وجه الموضوع ولا يمنعه من اثارة بعض الاحاسيس في الذات . فالشيء في ذاته الذي اعتقدنا اننا حذفناه مرة الى الابد وكنتيجة لاكتشاف يوم احد ماخ ، قد برز ثانية . وبالواقع ، فان ماخ قد شن حربا على الشيء في ذاته غير المعروف ، لكن علينا الآن ان نتعامل مع شيء ممكن الوصول اليه بالنسبة لشعورنا : «الباحث» ب ممكن ان يكون خاضعا للبحث من قبل الباحث أ ، و الباحث ب بدوره يمكن أن يكون « قائما » بالدور ذاته بالنسبة للباحث ا . وهذا يبيّن اننا تقدمنا **خطوة واحدة الى الامام** . ولكنها خطوة واحدة . **باتجاه مذهب ((كانت)) المثالي المتعالي فقط** ، وليس في نطاق المذهب المادي ابداً ، الذي ينكر ان الشيء في ذاته هو مجهول ، (Unknowable) (٢) كما نعرف انا وانت يا سيد

(١) Notion معنى : استخدمه باركلي في مقابل فكرة ليدل على معرفة الروح والروحيات والعلاقات وهي أمور لاتتخيل كالمحسوسات ومعنى ذلك أن لدينا معارف مغايرة للمعارف المتخيلة والتي يدل عليها بلفظ Idea كما استخدمه اتباع هيغل من الفلاسفة الانكليز ترجمة للكلمة الالمانية .Begriff وهذه يستخدمها هيغل للفكرة الشاملة ويطلقها كذلك على الدائرة الاخيرة من المنطق وعلى موضوع المنطق كله ويقول « المنطق هو علم الفكرة الخالصة أو هو عالم الفكرة الشاملة في وسطها الفكري الخالص » . (انسكلوبيديا)

(٢) مجهول عند هربرت سبنسر موجود ولكنه ليس موضوع ادراك . وهو لفظ

بوجدانوف ، وعلى اطلاع تام بكل ما قيل اعـلاه . فماذا اذن يميّز « فلسفة » ماخ عن المذهب المادي ؟ دعني اشرح ذلك .

سوف يقول المادي أن كل واحد من باحثينا الاثنين ليس اكثر من « الذات ــ الموضوع » ، موجود واقعي مادي ، جسم يملك القدرة على الحس(١) والتفكير . في حين ان الثائر ضـد الميتافيزيقا ، ماخ سوف يثير الاعتراض أنه مادامت الاجسام ليستالا «رموزا منطقية لمركبات العناصر (مركبات الاحاسيس)»، فليس لنا حق منطقي للتسليم بأن باحثينا هما موجودان ماديان. واننا **مجبرين** على اعتبارهما جزئين من مركب عالم الاحاسيس. وفي غضون ذلك يجب علينا الا نختلف أو نتناقض بشأن هذا . وسنوافق للحظة على أن « باحثينا » يمثلان مركبات صغيرة من الاحاسيس . ولكن اسلوبنا لم يزل العقبات من طريقنا ، فمـا زلنا في حالة جهل تام بما يتعلق بالطريقة التي تتولد بها معرفة وجود وخواص ب بالنسبة لـ أ . واذا افترضنا من وجهة نظر المذهب المادي أن ب بتعضيته وافعاله ، يثير احاسيسا معينة في أ . تصبح بعدئذٍ اسساً لمفاهيم محددة ، فإن النتيجة سوف تكون هراء محضا : مركب ما من الاحاسيس يثير احاسيس معينة في مركب آخر من الاحاسيس ؟ وهكذا سوف يكون هذا اكثر سوءا من « الفلسفة » الشهيرة التي تقول بأن الارض تستقر علـى حيتان ، وان الحيتان تسبح في الماء وأن الماء على الارض . لماذا يحتج حتى ماخ على فرضيات كهذه ؟ سنرى ذلك فيما بعد .

ملازم للفلسفة اللاأدرية في مختلف صورها في نقدية كانت ووصفية كونت وتطورية سبنسر . أما عند هاملين فهذا اللفظ ينطوي على تناقض اذ كيف نقرر وجودشيء نجهله !.

(١) Sense حس عند لوك يعني الحس الباطن التفكير . والحساحدى قوى المعرفـة .

على اي حال ، دعونا لا نشرد عن موضوعنـــا الشيق ، ان الفرضية التي‌تقول‌بأن ب يصبح‌معروفا من قبل ا بإثارة احاسيس معينة في الاخير قد ادت بنا الى اللاجدوى ، وانّنا نصل الــــى النتيجة ذاتها بالفرضية الاخرى التي تقول بأن ب خارج نطاق معرفة ا . فماذا نفعل الآن ؟ واين نجد الجواب على سؤالنا هذا ؟ قد يشير علينا بعضهم بالرجوع الى لايبنتز Leibnitz واللجوء الى نظريته في Pre - determind harmony الانسجام‌الازلي[١] . وباعتبار اننا على استعداد كبير لتقبل مثل هذا الآن فقد قبلنــا هذه النصيحة غير ان ماخ العنيد قد حرمنا من هذا المخرج الاخير اذ يصف الانسجام الازلي[٢] كنظرية متوحشة .

حسنا اننا نقبل بالتخلي عن هذه النظرية . فما نفعنــــا بنظرية وحشية (رهيبة) ! ولكننـــا لسوء الحظ ، نصادف في الصفحة ٣٨ من الترجمة الروسية لكتـــاب Analyse der Empfindungen ما يلي : « لا يعود البحث العلمي المستقل مفهوما عندما نجعل من نظرية تتناسب وغاية خـاصة ومحددة كأساس مُسبَق beforehand لكل اشكال البحث . وهذا يحدث مثلا عندما

---

(١) لمست ميلا لدى الاستاذ الدكتور بديع الكسم الى ترجمة هذه العبارة بالانسجام الازلي . ولابد في الوقت ذاته من الاشارة الى أن الاستاذ يوسف كرم يعتمد لفظ تناسق سابق . أما الاستاذ الدكتور عادل العوا فهو من رأي الاستاذ الدكتور الكسم وان كان لايمانع من استعمال لفظ تناسق مسبق أو تساوق مسبق اوانسجام مسبــق . (المترجم) .

(٢) يقول ليبتز ان فعل الجسم والنفس يتلاقى بموجب (تناسق سابق) وأن المونادا تدك العالم بواسطة ادراكات متميزة ومختلطة ولما كانت المونادات مستقلة وجب تفسير توافق حالاتها . ولايفسر هذا التوافق الابافتراض خالــق منسق .

نعتبر جميع التجارب كأفعال للعالم الخارجي تصل ادراكنـا . وهذا يجعلنا نواجه سلسلة من المصاعب الميتافيزيقية التي يصعب حلها تماما . ولكن هذه تتبخر جميعا حالما ننظر للمشكلة بحس رياضي . او لنقل مثلا : عندما ندرك ان ماهو قيّم بالنسبة لنـا ما هو الا تكوين العلاقات الوظيفية وتبيان الاتكال او الترابط بين تجاربنا . يتوضح بعدئذٍ وباديء ذي بدء بأن تكوين علاقة بينهـا (اي تجاربنا) وين نوع ما من المتحولات الاصلية المجهولة او غير المحددة (الاشياء في ذاتها) انما هو امر خيالي محض ولا غاية له».

وقد اعلن ماخ وبشكل مطلق ان من السخف أن نعتبـر تجاربنا نتيجة فعل من العالم الخارجي يصل لشعورنا . فلنأخذ رايه في الموضوع ولنقل لأنفسنا : اذا كانت لنا تجربة سماع صوت شخص آخر في لحظة معطاة ، فاننا سنكون على خطأ جسيم اذا فكرنا بأن نفسّر هذه « التجربة » بفعل من العالم الخارجي يقع علينا ، او ذلك الجزء الذي يتألف منه الشخص المتكلم . ويؤكد ماخ لنا ان كل افتراض لمثل هذا الفعل ، ان هو الا محض افتراض ميتافيزيقي مهمل . ويبقى علينا ، بناء على ذلك ، ان نفترض اننا نسمع صوت الشخص الآخر . لا لأنه يتكلم (ويؤثر علينا بواسطة اهتزازات هوائيـة (Air vibrations) ، بل لأن لدينا «تجربة» عنه يتراءى لنا بنتيجتها وكأنه هو الذي يتكلـم . واذا سمع جوابنا ، فلا يفسّر هذا ايضا بحقيقة ان الاهتزازات الهوائية التي سببناهـا تحـدث فيه احـاسيس سمعية (auricular Sensations) ، ولكن من خلال تجربته التي يتوهم خلالها اننا نرد عليه ، ولا يمكن توضيح ذلك من هذا ، وهنالا توجد ثمة اي صعوبات ميتافيزيقية . ولكن أليس هذا ـ اذا سمحت ـ هـو النظرية ذاتها ، نظرية الانسجام الازلي التي وصفها ماخ كنظرية

متوحشة(١) ؟

يبرهن لنا ماخ ان الشيء الوحيد ذو القيمة بالنسبة لنا هو **انشاء علاقات وظيفية** ، آي تفسير الاتكالية في تجاربنا احداهـا على الاخرى . ومرة ثانية فاننا نقبل رأيـــه في الموضوع ونقول لأنفسنا : اذا كانت المسألة برمتها هي في انشاء **الاتكالية الوظيفية لتجاربنا بعضها على بعض** فإنه لا يحق لنـا ان نسلم بأن **وجود اشخاص آخرين هو مستقل عن هذه التجارب** . ومثل هذا الاقرار سوف يسبّب (give rise to) ورطة شاملة ومتشابكة مـــن « الصعوبات الميتافيزيقية » . ولكن هذا ليس كل مافي الموضوع. وقادنا الاعتبار نفسه الى الاعتقاد بأننا لا نستطيع (دون أن نقترف خطيئة ضد المنطق) ان نعترف بوجود تلك «العناصر» التيلاتنتسب الى « ذاتنا » ، وتتضمن « اللاأنا » ، العالم الظاهري « وبصورة عامة ، فانه لا شيء يوجد سوى تجاربنا . وكل شيء آخر هـو ابتكـــار ، ميتافيزيقي ، ولتحيا الاحاديـــة التصوريـــة(٢) (Solipsism)

واذا كان ماخ يعتقد انه يستطيع التغلب علىهذه «الصعوبة»

---

(١) ويقول ماخ في قسم اخر من تحليل الاحاسيس (ص ٢٦٥ الطبعـــة الروسية) « ان ادراكات الحس المختلفة لدى شخص مابالاضافة الى ادراكات الحس عند أشخاص شتى تعتمد على بعضها بعضا ، وبشكل ينسجم مع القانون وهذا مما تتألف منه المادة » وربما يكون السؤال بكامله في هذا المجال هو هل هناك من وجهة نظر ماخ اعتماد اخر بالاضافة الى ذلك الذي ينسجم مع التساوقالمعني؟

(٢) سلم هانس كورنيليوس وبغير تحفظ بانه لايعرف طريقا علميا للخلاص من الاحادية التصورية . وماخ يعتبر هانس شخصا يعتنق الافكار نفسها التـي يعتنقها هو انظر Einleitung in die philosophie ليبزيغ ١٩٠٣ ص ٣٢٣ .

التي لاشك فيها ، بالتمييز بين « الانا » في معناها الضيق(١) و « الانا » في معناها الواسع(٢) ، فهو على خطأ رهيب . فتوسيعه « للأنا » يتضمن في الحقيقة (وكما أشار هو العالم الخارجي ، في مركب توجد فيه ايضا « أناوات » أخرى ، ولكن هذا التمييز كان فيختى قد قدمه تقريبا ، تمييز يناقض فيه **((الانا)) ((اللاانا))** (وهذا اللاانا يضم الافراد الآخرين(٣) . وعلى أي حال ، فإن هذا لم يمنع **فيختى** من ان يظل مثاليا ذاتيا (Asubjective Idealist) ، ولسبب بسيط جدا ، فبما يتصل به وبباركلي وماخ ، **فإن ((اللاانا)) وجد فقط في مفهوم ((الانا))** . ومنذ ان كان مخرج حدود **((الانا))** مغلقا بشدة امام فيختى بسبب رفضه لوجود **الشيء في ذاته** ، فإن كل الامكانيات النظرية لنجاته من الاحادية التصورية ذهبت هباء، ولكن الاحادية التصورية لم تكن بعدئذ مخرجا ايضا ؛ وبناء على ذلك فقد رأى فيختى الخلاص في **((الانا)) المطلق**(٤) . وقد كتب

---

(١) انظر Erkenntnis und lrrtum 5.6

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٣) (ملاحظة من مجموعة الدفاع الى الهجوم) وهذا يجب أن يضاف : لم يكن فيختى هو الوحيد الذي قام بهذا التمييز . لقد تسرب هذا التمييز الزائف ليس بين المثاليين كلهم فقط بل حتى بين الاحاديين التصوريين .

(٤) Absolute ego أنا مطلق عند فيختى هو علة عالم الموضوعات الماثلة في الانا التجريبي . كان **كانت** قد اقتصر على وضع المقولات وضعا باعتبارها لوازم منطقية للفكر أما **فيختى** فيريد أن يستنبطها استنباطا فيبدأ من أبسط معاني المنطق العادي . يقول فيختى أن كل ماخلا الانا فهومن خلق الانا المطلق، وانما يخلق الانا المطلق لكي يتحقق فهو ينقسم الى كثرة من الاناوات التجريبية . فهو يقول ان ١ — ١ وهذا المبدأ يفترض « أنا » يعقله واذن فان علي أن أضع بدل ١ وهو كمية عير

الى جاكوبي (Jacoby) « انه من الواضح ان اناي المطلق ليس هو الفرد ... بل آن آلفرد يجب أن يستنتج من الانا المطلق ، « ومعتقـدي في آلعـلـم »(١) « Wissenschaftslehre » سوف يفعل هذا في مبدأ الحق الطبيعي » . ولكـــن لسوء الحظ فإن معتقد فيختى لم يفعل هذا . ولم ينجح فيختى قط في التطابق نظريا مع الاحادية التصورية . كما آن ماخ لم ينجح في ذلك . ولكن فيختى آلذي كان آستاذاً كبيرا في معالجة المفاهيم آلفلسفية ، كان

معينة ، الانا فأحصل على (أنا ــ أنا) ولكن ا كمية ممكنة فحسب . والانا كمية موضوعية ضرورية فلي أن أقول « أنا موجود » ثم استخرج من هذا القول : أولا مبدأ منطقيا هو مبدأ الذاتية وثانيا مبدأ ميتافيزيقيا هو مقولة الوجود وكما قلت ان ا = ا ، أستطيع أن أقول « لا ا غير مساو لـ ا » ثم ان استبدل بهذه القضية قولي « ان لا أنا غير مساو لانا » فأحصل على تقابل بين أنا ولاأنا ، واستخرج من هذا التقابل مبدأ منطقيا هو مبدأ عدم التناقض ، وثانيا مبدأ ميتافيزيقيا هو مقولة السلب وهذا هو منهج السلب . أي نفي الانا بوضع اللاانا . على أنالانا واحد فهو لايطيق هذا التعارض بين أنا ولاأنا . فلابد من التركيب . الانا يعارض اللاأنا المنقسم بانا منقسم . ومن هنا استخرج أولا مبدأ منطقيا هو مبدأ السببية وثانيا مبدأ ميتافيزيقيا هو مقولة التعيين وهذا هو منهج الحد . أي وضع الانـا لنفسه باعتباره محدودا باللاانا . ووضع الانا للاانا باعتباره محدودا بالانـا . التركيب الاول نقطة بداية الفلسفة النظرية التي تدرس الانا باعتباره منفعـــلا بموضوعات تبدو أول الامر جواهر أو أشياء بالذات . التركيب الثاني نقطة بداية الفلسفة العملية حيث يرى الانا نفسه واضعا حدا لفعل الاشياء الخارجية ومستخدما اياها لتحقيق ذاتيته .

(١) عبارة يستعملها فيختى لتبيان مايعتبره فلسفة واقعية وفلسفته في المثالية الذاتية . بالنسبة له هذا المعتقد يستنتج كل التنوع وغنى مقولات المعرفـة من مبدأ واحد موثوق تماما .

على الاقل مدركا لضعفه في فلسفته الخاصة . وماخ الذي كان على الارجح عالم طبيعيات جيد ، كان مفكراً رديئا ، غير عارف بأن « فلسفته » تطفح بالتناقضات المفضوحة وغير المقبولة . وكان يجول ويصول داخل وخارج هذه التناقضات بهدوء نفسي رابط الجـــأش .

والفت انتباهك هنا ياسيد بوجدانوف انه وقع لماخ سؤال : هل تجاهل المادة هو أيضا احساسات تجريبية كذلك ؟ قال ماخ فيما يتعلق بذلك :

ان السؤال طبيعي للغاية ، واذا انطلقنا من معانٍ مـــادية منتشرة كثيراً حاليا **فإن المادة هي واقع معطى مباشر لا يقبـــل الجدل** . ينشأ منها كل شيء سواء كـان عضويا ام لا عضوي . اذن ، يجـــب علـــى الاحســـاس ان ينشـــأ فجـــأة فـــي مكان ما من هذا المركب الذي يتألف من المادة ، او ان شيئا آخر يجب أن يكون موجوداً في الاساس . من وجهة نظرنا ، فإن المسألة اساسا ، هي مسألة زائفة . فالمادة بالنسبة لنا ليست معطـى اوليـــا(١) (Primarily given) بل على الاغلب أن ما هو معطى اولي هي **العناصر** ، والتـــي في علاقة محـــددة معينة تسمى كأحاسيس(٢) » .

ولاعطاء ماخ حقه ، فإنه هنا منطقي تماما ، وفي الصفحة التالية لا يقل منطقية حيث يكرر مراراً ان المادة ليست اكثر من نوع محدد من الترابط بين العنـــاصر ، ثم يستنتج بدقـــة : « وبالتالي ، فإن مسألة الاحساس في المادة يجب ان تصاغ على

---

(١) Primary أولي . كيفيات أولية كالامتداد والحركة والصلابة (المترجم) .

(٢) تحليل الاحاسيس ص ١٩٧ .

النحو التالي : هل هناك **نمط معين** من ترابط عناصر احاسيس التجربة ؟ (عناصر في علاقة معينة هي الاحاسيس ذاتها) . لن يضع احد هذا السؤال بهذا الشكل »(١) .

وهكذا ، ولكن المقطع التالي الذي يسبق مباشرة حجة ماخ المنطقية **(من وجهة نظر ماخ)** حول المادة والذي اقتبسه بالكامل ، هو مقطع غير منطقي اطلاقا . « اذا كنت اثناء معاناتي لإحساس ما،انا او انسان آخر، نستطيع مراقبة دماغي بواسطة كل التطبيقات الفيزيائية والكيميائية الممكنة، فانه سيكون معقولا التحقق بالتجربة أو الاختبار من **عملية الترابط الخاص لاحساسات العضوية** ويمكننا بعدئذٍ وعلى الاقل وبواسطة التناظر ان نقترب من حل السؤال الذي يعترضنا : الى اي مدى يصل الاحساس في العالم العضوي، وهل تملك الحيوانات الدنيا **احاسيسا** وهل يملك النبات بالفعل احاسيسا ؟ !

حاشا لي (Far be it from me) أن اثير السؤال مرة ثانية هنا : فمن أين يأتي « شخص آخر ما » ليراقب « دماغي » . ونحن نعرف حقا الآن ، أنه لا مكان له في فلسفة « ماخ » . ولكننا تعودنا الآن على هذا النقص في المنطق عند « فيلسوفنا » . ولكن ذلك لا يهمنا كثيرا . فلدينا شيء أكثر اهمية في العقل . قال لنا ماخ ان « مسألة الاحساس في المادة يجب أن تصاغ في هذه الطريقة: هل بامكان نمط معين من ترابط العناصر ان يكتشف الاحاسيس (عناصر في علاقة معينة هي الاحاسيس ذاتها) ؟ ونحن نوافق معه على انه من العبث وضع السؤال بهذا الشكل . والآن اذا كان ذلك حقيقة . فليس اقل سخافة طرح السؤال فيما اذا كانت الحيوانات الدنيا او النبات لديها أحاسيس . وعلى كل حال ،

---

(١) المصدر السابق .

فإن ماخ لم يفقد الامل « بالاقتراب » من حل هـذا السؤال ، الذي هو من وجهة نظره سخيف . فكيف يتقرب مـن الحل ؟ « على الاقل بواسطة التناظر » . والتناظر بماذا ؟ بما يجري في دماغي عندما اختبر بعض الاحاسيس ، وما هو دماغي ؟ جزء من جسمي . وما هو الجسم ؟ مادة . وما هي المادة ؟ « لا شيء اكثر من نمط معين من ترابط العناصر » وبناء على ذلك يجب علينـا الاستنتاج كما فعل ماخ : وبالتالي فإن مسألة ما يجري في دماغي عندما اختبر بعض الاحساس يجب ان يتشكل هكذا : ما يجري في نمط معين من ترابط نمط معين من « العناصر » التي تشكل « الانا » هي في علاقة محددة ، الاحاسيس نفسها « ولكن متـى تختبر **« الانا »** الاحاسيس ؟ هذا السؤال هو استحالة منطقيـة **(من وجهـة نظر ماخ)** كالمسألة المتعلقة بالاحاسيس في المـادة اللاعضوية . والآن فنحن نصادف هذا السؤال بشكل او آخـر في كـل صفحة تقريبـا من Analyse der Empfindungen فلماذا هذا ؟

هنا يكمن السبب . ماخ كعالم طبيعيات ، اضطر باستمرار لتبني وجهة نظر مادية ، مع انه غير مدرك لها اطلاقا . وهو في كل مرة يفعل هذا ، يدخل في احتراب منطقي مع الاسس المثاليـة لفلسفته « الخاصة . ولدينا مثال على ذلك يقول ماخ : «بالاضافة الـى (together with) عدد كبير من علماء الطبيعة وعلماء النفس المعاصرين ، فـ ... انني مقتنع بأن ظاهرة الارادة يجب ان تصبـح ممكـن **فهمهـا** وعلـى وجـه الحـصر (ويجب وضعها باختصار وبحدود عامة مفهومة جيدا) مـن جـراء قوى عضوية ، مادية »(١) وعبارة « ويجب وضعهـا باختصار

---

(١) تحليل الاحاسيس ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

وبحدود عامة مفهومة جيداً » تكون مفهومة فقط عندما تأتي من انسان مادي .

ونقرأ على الصفحة رقم ٩١ من الكتاب ذاته مثالا ثانيا « والتكيف بالنسبة لشروط الحياة الكيميائية المعبر عنها **باللون** ، يتطلب كمية **حركة** اكبر من التكيف لشروط الحياة الكيميائية الجلية بالذوق والشمم » .

وهذه طريقة ملائمة جداً لصياغته ، ولكن الفكرة مازالت فكرة مادية تماما(١) .

وفي السؤال الثالث ، كتب «ماخ » « وأذا استمر نمط ما من التقدم في كلا الجسمين العضوي واللاعضوي ، فإن التقدم سيقرر تماما من قبل ظروف اللحظة المعطاة ويتحدد لنفسه لدرجة لا تتيح عنه اي تأثيرات أضافية ، ونحن نادرا ما نتحدث عن هدف في مثل هذه الحالة وكمثال على ذلك ، عندما يحدث التهيج أحساسا بالضوء أو تقلصا عضليا »(٢) . ومن المستحيل عدم

---

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) ان شروطا كيميائية مادي « وحيث أن عبارة ماخ هذه تسلم بذلك الوعي وهذا يعني أيضا بهذه المناسبة « ظاهرة الارادة » تعرف على أنها موجود « البناء المادي لاولئك العضويين حيث تتضح عندهم الظاهرة المشار اليها . ومن العبث القول بأن هذا الموجود ، هو موجود فقط في الادراك أو في أحاسيس الكائنات التي تكشف ظاهرة الارادة » والموجود هو أيضا الشيء في ذاته بالتأكيد . ويدو من الناحية الاخرى مع ماخ بان المادة هي أحد شروط « تجارب » الوعي . ومن جهة ثانية فان تلك المادة أي الناء المادي للعضوية يقرر تلك التجارب التي يسميها مفكرنا ظاهرة الارادة .

(٢) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) أقول فقط من انسان حية تعتبر موجودة ان تكيف العضوية بالنسبة لها تظهر (بالذوق والشم) أو بصفة الاحاسيس الغريبة عن هذه العضوية ، وربما يتبادر سؤال الى الذهن

الموافقة على هذا ولكن الحالة التي شرحها ماخ تفترض مثل هذا التهيج (من عضو ذات معطاة) **ونتيجته** هي الاحساس . وهذه وجهة نظر مادية بحتة حول اصل الاحاسيس ، ومثل هذا القبيل لا يتطابق ببساطة مع رأي ماخ . أن الجسم هو **رمز** فقط (لتجمع ما من الاحاسيس) .

فعالم الطبيعة في ماخ « يميل باتجاه المذهب المادي . ولايمكن ان يكون غير ذلك . لا يمكن ان يوجد علم طبيعي **لا مادي** . ولكن « الفيلسوف » في « ماخ » يميل نحو المذهب المثالي . وهذا امر قابل للفهم تماما . فالرأي العام للبورجوازية (المحافظة) المعاصرة على تفاهم مع البروليتاريا (الثورية) المعـاصرة ، وامر بغيض بالنسبة للمادية ان لا تكون سوى شيء نادر وان المادي يجب ان يصرح عـن نفسه بغـير تحفظ . كمـا فعـل هيكل(١) Haekel

---

هل يستطيع المرء أن يؤكد الان بدون الانزلاق الى أي تناقض أن الشروطالكيميائية الحية المذكورة أعلاه هي فقط مركب من الاحاسيس الغريبة عن العضوية ؟ ومـن الواضح أنه لايستطيع . ولكن طبقا « لماخ » فان هذا يجب أن يقال . ويعتنق ماخ الفرضية الفلسفية التي تقول بان الارض ترتكز على حيتان والحيتان تسبح في الماء. والماء على الارض . وان ماخ مرتبط بهذا الاعتقاد بخصوص الاكتشاف العظيم الذي أفرح كثيرا صديقي الشاب فريدريك ادلر انظر الى نشرته :

Die entdeckung der weltelmente, sounderbruck aus N. 5 der zeitschrift der kampf, wien, 1908).

وبصورة عرضية فانني لم أفقد الامل بان صديقي الشاب سيفكر يوما ما بعمـق أكثر بالاسئلة الفلسفية الاساسيةوسيبتسمبنفسه على أوهامه الساذجة الحاليةمع مـــــاخ .

(١) أحادية هيكل مذهب هيكل يقرر ان الكون واحد فلاتعارض بين المـادة الروح ولابين العالم والله ، فليس يوجد قوة حيوية وليس العالم مخلوقا وانمـا هو متطور طبقا لقوانين محددة وصارمة .

باتخاذه الاحادية المادية . اما « ماخ » فقد كان يملك نفسين في صدره . ولهذا السبب تأتي متانته وتماسكه(١) .

ومن اجل ذلك كله ، يجب عليّ مرة ثانية ايفاءه حقه ، فهو **ليس فقط** غير عارف بما يتعلق بالسؤال : المذهب المادي او المثالي؟ ولم يفهم المذهب المادي فقط بل انه لم يفهم المذهب المثالي ايضا .

انت لا تصدق هذا ، ياسيد بوجدانوف ، ولكن تابع القراءة . أن ماخ يتذمر من أنه كان من المعقول تحويله اما الى مثالي (تابع لباركلي (Berkeleyoner) او الى مادي . ويعتبر أن تهمة من هذا القبيل لا اساس لها من الصحة ويقول : « بالنسبة لهذه التهمة ، فانني اترافع قائلا بأنني غير مذنب(٢) » ويتردد نفس الاحتجاج في الصفحة ٢٨٨ (من الترجمة الروسية) . ولكن ماخ

---

(١) (ملاحظة من مجموعة من الدفاع الى الهجوم) وبالنسبة للقارىء الذكي الذي كان ن.ج. تشيرنيشفسكي والذي كان على خلاف معه في وقت ما في روايته « ماالعمل ؟ » سأضيف الميزة التالية : « لاأود اطلاقا القول بان ماخ وأمثاله من المفكرين يعدلون من وجهات نظرهم الفلسفية المذكورة بالنسبة للحاجات الروحية للبورجوازية المعاصرة وفي حالات مثل هذه فان تكيف الوعي الاجتماعي « الطبقي » مع الوجود الاجتماعي « الطبقي » يحدث في معظمه دون ادراك الافراد. وبالاضافة الى هذا وفي هذه الحال فان تكيف الوعي بالنسبة للوجود قد تحقق قبل فترة طويلة من بدء نزهات « ماخ » يوم الاحد في مملكة الفلسفة أما خطيئة ماخ فتكمن فقط في حقيقة ، أنه لم يكن عنده الوقت ليتخذ اتجاها نقديا ازاء التيارات الفلسفية المعاصرة . ولكن هذا الاثم قد ارتكبه كثيرون وحتى أناس موهوبون أكثر منه .

(٢) تحليل الاحاسيس ص ٤٩ من الترجمة الروسية وفي الصفحة ٣٩ من الطبعة الرابعة بالالمانية .

في الصفحة ٢٩٢ يصف علاقته « الخاصة جدا » مع **كانت** فيكتب : « **كانت** مثالية **كانت** النقدية ، وكما يجب علي ان اعترف وبامتنان عميق ، نقطة انطلاق لكل فكري النقدي ، ولكنني وجدت من المستحيل ان اظل وفيأ لها ، ورجعت فورا الى آراء **باركلي** التي بقيت في اعمال **كانت** بصورة مستترة بقليل او كثير . وبواسطة البحث في ميدان فيزيولوجية اعضاء الحواس ، ودراسة **هربارت** ، توصلت لآراء قريبة الصلة لأفكار **هيوم** ، مع انني في ذلك الوقت لم اكن مطلعا على أعمال هيوم الخاصة ، وحتى اليوم فانني لا استطيع ان اتجنب اعتبار باركلي وهيوم كمفكرين منسجمين اكثر من كانت . وذلك يستتبع انه لا دخان بلا نار . فاية نار ! انها جهنم واقعية . وفي الحقيقة فإن **الماخية هي باركلية معدلة قليلا واعيد طلاؤها بألوان « العلم الطبيعي للقرن العشرين »** .

ولم يقدم ماخ بالصدفة كتابه Erkenntis und Errtum الى فيلهلم سشواب(١) Wilhelm Schuppe الذي يعتبر – قل ما تشاء – مثاليا على درجة كبيرة من النقاء وهذه حقيقة يمكن التأكد منها بقراءة :

(Erkenntnis theortische Logik).

ولكن – ومن المستحيل التحدث عن فلسفة ماخ بدون الاكثار من لكن – فيلسوفنا يملك بالفعل ايضا ، آراء لعلها قادته بعيدا عن باركلي . وهكذا فهو يقول : « في الحقيقة ان نوعا بيولوجيا ما (Some species) **قد اندثر** ، كما أن لا يوجد شك بأن نوعا بيولوجيا ما قد خرج الى الوجود . وبناء على ذلك ، فإن مجال فعل الارادة – التي تناضل من اجل اللذة ، وتتفادى الالم – يجب ان يمتد الى خلف حدود حفظ النوع (البيولوجي) عندما يستأهل

---

(١) فيلهلم سشواب (١٨٣٦ – ١٩١٣) فيلسوف الماني مثالي ذاتي .

الحفظ ، وتدميره عندما يتوقف وجوده عن أن يكون نافعا في المستقبل(١) » .

ما هي هذه « الارادة » ؟ ولمن ؟ ومن اين جاءت ؟ سوف يجيب باركلي : طبعا ، انها ارادة الله . ومثل هذا الجواب سوف ينهي مساوىء فهم كثيرة في عقل انسان ديني ورع . وسوف تكون له فائدته ايضا ، ذلك انه سيقدم حجة جديدة لصالح آراء صديقك الدينية يا سيد وجدانوف ، واقصد صديقك اناتولي المبارك . وعلى اي حال فماخ لم يقل كلمة واحدة عن الله ، وبناء على ذلك ، فاننا سوف نرفض الاوهام الغيبية ونوجّه اهتمامنا الى الكلمات التالية لمفكرنا ماخ « يمكن ان يقبل المرء فكرة شوبنهاور(٢) Schopenhauer

(١) ماخ . تحليل الاحاسيس ص ٧٤ .

(٢) أرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) (١٧٨٨ — ١٨٦٠) فيلسوف مثالي ألماني . فيلسوف التشاؤم . يقول ان العالم بالنسبة الينا جملة تصوراتنا فحسب . وأن المادية فكرة من أفكارنا . فما المادية الا تصورنا للعالم ، وماالعالم الا الوجهة الخارجية للوجود . ولو كنا ذاتا عارفة فحسب لما عرفنا من العالم سوى أنه تصور ولكننا نحس في أنفسنا غرائز وميولا . وندرك **أن الارادة جوهر الانسان فيجب فهم العالم بواسطة الانسان وحينئذ ندرك أن الارادة جوهر العالم أيضا** . وأن العلية الطبيعية في مختلف درجاتها من جنس ارادتنا . **فالارادة هي الشيء بالذات يتجلى في مختلف الموجودات** وأول مظاهر الارادة الكلية الفعل الالي البحث حيث العلة والمعلول من طبيعة واحدة وحيث يمكن ادراك علاقاتهما مباشرة . ولكن الارادة الكلية تظهر واضحة في عالم الاحياء وهي التي تعمل فيه أثناء اليقظة والنوم بدون انقطاع . **والمعرفة نفسها ماهي في الاصل الا وسيلة للارادة والعقل أعلى تجليات الارادة** . له نظرة متشائمة جدا في الحياة ويعدها شرا . ويقول **ان التنوع في الصور الطبيعية صادر عما في الارادة الكلية من حب البقاء وميل للتحقق الى أقصى حد** . وهذا التنوع أصل تعارض الموجودات وتصارعها

عن العلاقة بين الارادة والقوة بدون ادراك اي شيء ميتافيزيقي في كلا الاثنتين(١) » . والآن ، كما ترى ، فان شوبنهاور قد صعد على المسرح ، ونشأ السؤال المتعذر اجتنابه : كيف يمكن للمرء الا يدرك اي شيء ميتافيزيقي في فكرة شوبنهاور « عن العلاقة بين الارادة والقوة ؟ ليس لدى « ماخ » جواب على هذا السؤال . ولا يحتمل قط ان يكون لديه جواب . ومهما كان ، تبقى الحقيقة قائمة ، وهي انه عندما بدأ التحدث عن الارادة التي تحفظ النوع (البيولوجي) الجدير بالبقاء وتدمّره عندما لا يكون جديرا بذلك ، فقد بدأ ماخ يتعمق في ميتافيزيقيات ذات ادنى مستوى .

وهناك المزيد من ذلك ، ففي الصفحة ٤٥ من كتابه «تحليل الاحاسيس » يتحدث ماخ عن « **طبيعة اللون الاخضر بحد ذاته** (التأكيد من ماخ) وهي طبيعة تظل دون تغيّر مهما كانت الزاوية التي ننظر منها اليها . ونقرأ في الاصل الالماني وفي المكان ذاته : « Das Grüne an sich الاخضر في ذاته(٢) » ولكن كيف يمكن ان يكون هناك « الاخضر في ذاته » ؟ الم يؤكد لنا « ماخ » نفسه انه لا يمكن وجود شيء « في ذاته » . ولنتصور فقط ، لقد اصبح الشيء في ذاته اقوى من ماخ نفسه ، وهو يطرده من الباب ، ولكنه يطير عائدا اليه من النافذة ، وقد اتخذ مظهرا لا معقولا الى اقصى درجة لل « الاخضر في ذاته » . ياله من قوة لا تقهر !

يفترس البشر والعجماوات بعضهم بعضا . ويفترسون جميعا النبات ويستهلك النبات الهواء والماء وغيرهما من المواد . الحياة شر وكل مانصادفه من خير فهو زائف .

(١) ماخ تحليل الاحاسيس .

(٢) الطبعة الرابعة بالالمانية لتحليل الاحاسيس ص ٣٦ .

وقد يتساءل الانسان مضطرا (كما فعل بوخنر(١)) :

ايها الشيء في ذاته

كـــم آحبـــك :

انت شيء الاشياء كلهـــا !

كيف يمكن آن يكون ذلك ؟ وما شكل هذه الفلسفة ؟ وهذا هو المهم ايها السادة : اذ انها ليست فلسفة على الاطلاق . يصرخ بذلك ماخ نفسه اذ يقول في المقدمـــة Erkenntins und Irrtum

على اي حال لا توجد فلسفية ماخية ـ

« Es gibt vor alem keine Mach'sche Philosophie »

ويوجد التصريح ذاته في

« تحليل الاحاسيس » اذ يقول : « اكرر مرة ثانية ، ليست هناك فلسفة عند « ماخ »(٢) » .

حسنا لا يمكن انكار الحقيقة ! ليست هنـــاك حقا فلسفة ماخية ولن يكون ، فماخ لم يكن قادراً على هضم المفاهيم الفلسفية التي اراد التعامل معها . وعلى اي حال ، ما كان الوضع ليكون افضل حتى ولو كان مؤهلا فعلا لدور الفيلسوف ، فالمثاليـــة الذاتية ، آلتي كانت وجهة نظره كانت ستقوده اما الى احاديـــة تصورية (آو تصورية مطلقة) (Solipsism) عي ما لا يريدها ، او الى سلسلة كاملة من التناقضات آلمنطقية غير آلقابلة للحل والى المصالحة مع « آلميتافيزيقيا » . ليست هناك فلسفة ماخية. وهذا امر هام جداً بالنسبة الينا . فلقد دفـــع الماركسيون الروسيون ومنذ بضع سنوآت فلسفة « ماخ » هذه نحونا ، والحوا وضغطوا

---

(١) لودفيغ بوخنر (Ludwig Büchner) ١٨٢٤ ـ ١٨٩٩ فيلسوف وفيزيولوجي الماني يصنف عادة كمادي .

(٢) تحليل الاحاسيس ص ٢٩٣ .

علينا من أجل ضم هذه الفلسفة التي لا وجود لها مع تعاليم « ماركس » ، والذي يظل اكثر صحة هو آن هذه الفلسفة على طريقة ماخ ـ او اكثر واقعية ، على طريقة باركلي آر فيختي ـ لا تستطيع ان تتخلص من تناقضاتها غير القابلة للحل ولقد كانت المثالية الذاتية وخاصة في العصر الراهن وحتى في القرن الثامن عشر وليدة ميتة للفلسفة . وليس لها هناك الآن وفي جو العلم الطبيعي المعاصر مجال للحياة . لذلك فإن اولئك الذين يتظاهرون باحيائها سوف يتبرأون منها على نحو متواصل . ومرة ثانية اكرر آن للمنطق قواعده الخاصة .

واعتقد آنني سأتركك الآن يا سيد بوجدانوف .

وسأضيف ملاحظة واحدة فقط . فأنت تشتكي في رسالتك المفتوحة والموجهة الي بأن زملائي في الفلسفة في روسيا ينشرون قصصا مختلفة وملفقة حولك . انك مخطيء في ظنك . لن أؤكد لك ان آولئك الناس الذين تتهمهم بالتعمد ـ كما فهمتُ ـ في تشويه افكارك يملكون احساسا واخلاقاً جيدة تمنعهم من الانحدار الى مثل هذا السلوك . انني انظر للموضوع من وجهة نظر عملية واتساءل : لماذا يضطر اي انسان لتشويه افكارك اذا كان ذكر الحقيقة عنها سيكون اكثر اساءة من اية كذبة او اختلاق ؟

اعبر عن تعاطفي المخلص لك في هذا النطاق ، في هذا الاجتمال الذي لا يتطرق اليه ويالأسف اي شك .

ج. بليخانوف

الرسالة الثالثة

« لقد طلبت ذلك يا جورج داندن ».

سيدي العزيز ،

مرت سنة كاملة منذ ان انهيت رسالتي الثانية لك . وظننت انه لن تكون لي معك اية مناقشة مرة ثانية . وعلي اي حال ، فيجب عليّ أن اتناول قلمي مرة اخرى لأكتب اليك هذه الرسالة الثالثة . وستكون رسالتي الثالثة حسب الشكل التالي :

— ١ —

انت بلا ريب تلميذ لماح ، ولكن ليس كل التلامذة سواسية : فبعضهم متواضعون وبعضهم مغرورون . والمتواضعون يتبنون جانب الحقيقة وتراهم غير ميّالين ابدا لاطراء فضائلهم الخاصة ، على حين ان المغرورين **مشغولون** بتسليط اضواء الشهرة على انفسهم فقط ، وهم على شيع مختلفة ازاء الحقيقة . ويبيّن تاريخ الفكر على أن التلميذ المتواضع كان دائما يسير بالاتجاه الذي ينسجم مع موهبته ، في حين ان الطالب المغرور يسير دائما باتجاه معاكس . خذ مثلا **تشيرنيشفسكي** Chernyshevsky

فقد كان شخصا متواضعا . وكان في تقديم افكار فيورباخ الفلسفية يرغب دائما في تكريس كل الفضل الى فيورباخ نفسه وحتى بالنسبة لتلك الافكار التي هي افكاره الخاصة (تشيرنيشفسكي) . واذا كان لم يذكر فيورباخ بالاسم فقد كان ذلك بسبب الرقابة فقط . وفعل تشيرنيشفسكي كل شيء يستطيعه من اجل ان يدع القارىء يعرف تلك المبادىء الفلسفية Soveremennik التي كان يدافع عنها . ولقد كان متواضعا ايضا في ميادين اخرى بعيدة عن الفلسفة . وفي نطاق الاشتراكية كان تشيرنشفسكي نصيرا من انصار اليوتوبيا الاوروبية الغربية ، وكان من جراء تواضعه الفطري يوضّح ــ وخاصة عندما كان يدافع عن آرائه الاشتراكية ــ بشكل جلي للقارىء ان هذه الافكار ليست هي افكاره الخاصة بل هي أفكار اولئك « اساتذته الغربيين الكبار » ورغم ذلك فقد ابدى تشيرنيشفسكي كل عمق في ثقافته ومعلوماته المنطقية والمعرفية وبدت موهبة كبيرة في جميع اعماله الفلسفية ودراساته الاشتراكية . واعيد ان التلميذ المتواضع يسير دائما في الاتجاه المناسب لموهبته ، في حين ان التلميذ المغرور يسير بالاتجاه المعاكس . وانت تنتسب الى فئة الطلاب المغرورين . وبانتشار « فلسفة » ماخ في انحاء روسيا كشفت هذه « الفلسفة » عن مؤهلات هي بالواقع عكس ما ابداه تشيرنيشفسكي في نشر فلسفة فيورباخ : وانت مازلت حتى الآن تدعي استقلالك واصالتك الفكرية وتعبر عن الدهشة لأنه في رسالتي الثانية ــ حيث فنّدت تعليقاتك التي اريد لها ان تكون نقدية فيما يتعلق ببعض مفاهيمي الفلسفية ــ قيّدت نفسي بمعالجة التناقضات التي لا تحل والتي هي في الواقع سخيفة واوقع ماخ نفسه في شراكها . بل انك لم تفكر انه من الضروري ان تدفع انت ثمن تلفيقاتك . واي انسان لا يتمتع

بذرة من المنطق ـ وبكل ما تحمله هذه العبارة ومعنى ـ يعرف انه عندما تنهار اسس عقيدة ما ، فإن التركيب الفوقي الذي يمكن ان يكون قد آقيم من قبل تلامذة المفكر الذي اعلن المبادىء الاولى لتلك العقيدة ، هذا التركيب الفوقي مؤكد آنهياره ايضا .
ولو كان كل امرىء مطلع على علاقتك الخاصة بماخ ، فإن الجميع سوف يدركون ومنذ الوهلة الاولى إنه بانهيار الماخية ، فإنـــه لن يبقى آي شيء من صروح فلسفتك ، سوى الاطلال والتراب .
ولكنك مثل باقي الطلاب المغرورين ، فانك تتخذ احتراسك لالغاء علاقتك الفعلية مع ماخ من ذهن قرائك ، وبالتالي ساعدك على ذلك امكانية ان يظل حتى اليوم أناس ينحون اتجاها لا مباليا في دراسة بعض الامور الدقيقة ، لقد وصلت بك الصفاقة الى حد انك تتجاهل العلاقة الواقعية الخاصة بينك وبين ماخ في اجتماع عام عقد بعد ظهور رسالتي الثانية اليك وتظاهرت بأن الاعتراضات على فلسفة « ماخ لا تحوز على أدنى آهتمام م ن آهتماماتـك .
ولمصلحة اولئك المغررين فانني اتناول قلمي مرة ثانية لانني اود ان احررهم من ضلالاتهم . وعندما كتبت رسالتي الاولى والثانية لك فانني لم اتعرض للأمر وعلى نحو مقارن الا في مجال ضيق ، ذلك انه لم يكن لدي متسع من الوقت للتعامل مع الاصل والصورة معا . ومن الطبيعي ان اؤثر تقديم الاصل . والآن فان لـــدي متسع من الوقت للراحة اولا وللرد في نقاط جزئية . وهذا الامر بحد ذاته هو الذي يمكنني من المناقشة معك .

إنت سعيد في ان تعلق : «لقد تعلمتُ كثيراً من ماخ ، واعتقد ان الرفيق بيلتوف يستطيع ايضا ان يتعلم كثيرا من هذا العالم والمفكر البارز ، هذا الهادم الكبير للتمائـــم العلمية . ونصيحتي للرفاق الشباب الا ينزعجوا للحجة القائلة بأن ماخ ليس ماركسيا ، دعهم يحذون حذو الرفيق بيلتوف ، الذي تعلم كثيرا من هيغل وهولباخ ، اللذان ان لم اكن مخطئا لم يكونا ماركسيين ايضا . وعلى اي حال لا استطيع ان اعتبر نفسي « ماخيا » في الفلسفة ، وفي المفهوم الفلسفي العام يوجد شيء واحد استعرته من ماخ ــ فكرة حيادية عناصر التجربة بالنسبة لعلاقة «الفيزيولوجي» و «النفسي»، واعتماد هذه الخصائص فقط على ترابط التجربة ــ وهو نظرية اصل التجربـــة النفسية والفيزيولوجية ، والمذهب البديـــل « التعاليم المتعلقة بعمليات مركبة » وباختصار انني اقل «ماخية» بكثير من « هولباخية » الرفيق بيلتوف . كما انني آمل الا يمنع هذا كلينا من ان تكون ماركسيين جيدين(١) » .

لن احذو حذوك بكيل المديح لنفسي او لخصمي ، وبقـدر ما هو معنيّ هذا الاخير ، وهو انت يا سيدي العزيز ، فانني خائف من انه يجب عليّ مرة ثانية ان اكون غير لطيف وان اذكّرك بما قلته في رسالتيّ السابقتين ، اعني انه كم هو امر مستحيل

(١) بوجدانوف التجريبية الاحادية ــ الكتاب الثالث س. بيترسبورغ ١٩٠٦ ص ١٢ من المقدمـة .

بالنسبة لأي انسان يرفض الاسس المادية لوجهة نظر ماركس وانجلز الى العالم ان يصبح « ماركسيا جيدا » ، وانت لاتقع في موقع ناءٍ جدا من عن ان « تصبح ماركسيا جيدا(١) » بل انت مقدّر عليك ان تحصل على نعيم لاتحسد عليه ، يتمثل في جذب كل اولئك الذين يريدون تكييف وجهة نظرهم لتلائم دائرة الكبار في البورجوازية المعاصرة من اجل الحوز على لقب ماركسي وبهذه المناسبة ، فانني استشهد بكلماتك لأبيّن فقط مقدار الغرور الذي حقنت به تعليل موقفك بالنسبة لاستاذك ماخ . واذا كان يجب علينا أن نصدقك ، فانه يبدو أنك لا تشترك مع ماخ الا بشيء يسير ازاء سلسلة كاملة من الافتراضات هي على درجة كبيرة من الاهمية من وجهة نظر التجريبية الاحادية . والمشكلة اننا لا نستطيع تصديقك في هذه الحالة الراهنة . ان غرور الذات يعميك ، ومن اجل الاقتناع بهذا ، يحتاج المرء لأن يأخذ في اعتباره ، واقعة بسيطة جدا لا تقبل الجدل . تلك هي أنه وحتى عندما تخيلت نفسك مستقلا عن استاذك فقد شوهت التعاليم التي استعرتها منه . والاكثر من ذلك انك فعلت ذلك **وظلت صادقا لروحه** . وهكذا فإن كل « تجريبيتك الاحادية » ليست اكثر من صنع عبث **متميز** ، كان لدى استاذك عبثا

(١) سأضيف هنا نقطة صغيرة واحدة : في مقدمة الطبعة الثانية ضد دوهرنغ قال انجلز : « كنت وماركس الشخصين الوحيدين اللذين أنقذا الجدل الواعي من الفلسفة المثالية الالمانية ، وطبقاه في المفهوم المادي للطبيعة والتاريخ »

(ف ، انجلز ، فلسفة ، اقتصاد سياسي ، اشتراكية ، س بيترسبورغ ١٩٠٧ ص٥) وكما ترى فان التفسير المادي للطبيعة كان بالنسبة لانجلز بالضرورة جزءا من نظرة عالمية صحيحة كالتفسير المادي للتاريخ وكان هذا منسيا أيضا وغالبا من قبل أولئك الميالين للانتقائية أو الى التحريفية النظرية .

الامكان فقط . كما كان سيقول هيغل(١) . فأي نوع من الاستقلال هذا ؟ بل اين توجد حتى اشارة واحدة عن الاستقلال هنا ؟ يكفي ياصديقنا الفائق الاحترام ان دعاواك آلسخيفة تنهار مثل بيت من ورق عند ادنى هبة هواء .

وتعتبرني غير منصف ؟ ذلكم امر قابل للفهم ، لا املك الا ان اكرر انك اعمى بالغرور الذي يسيطر عليك .

البراهين ؟ لا شيء اكثر منها ، انني آخذ مؤقتا اول مقالة من قائمة مقالاتك لفلسفة « النقد ـ التجريبي » التي تناولتها بالتفصيل في « نظرية في اصل التجربة آلفيزيولوجية والنفسية » ولا شيء يميّزك اكثر من هذه آلنظرية ، ولذلك فانها تستوجب كل اهتمام . فمم تتألف هذه النظرية بالفعل ؟ من هذا :

في تقديم وجهة نظر ماخ وآفيناروس « العميقة الجذور في الاشياء المكتسبة من العلم آلمعاصر(٢) » وتضيف « اذا دعونا وجهة النظر هذه نقدية ، تطورية ، مصبوغة اجتماعيا بالمذهب الوضعي، فاننا سوف نعبّر باختصار وبضربة واحدة عن التيارات الاساسية للفكر الفلسفي آلتي اندمجت بها بساقية واحدة » ثم تتابع قائلا « وحلُ كل ذلك هو فيزيولوجي‌نوفسي‌في‌عناصر متطابقة،ولايسمح النقد التجريبي بامكانية آي نوع من الثنائية ايا كانت . ولكن يبزغ هنا سؤال نقدي : لقد دحضت الثنائية واستؤصلت ولكن هل تحققت الاحادية ؟ وهل حررت وجهة نظر ماخ وآفيناروس فعلا تفكيرنا من طبيعته الثنائية ؟ لاخيار لنا في الاجابة على هذين السؤالين آلا بالنفي(٣) » .

---

(١) ومن الطبيعي سيدي العزيز انني لاأدعي كل المسؤولية عن اسلوبك الاصلي .

(٢) التجريبية الاحادية الكتاب الاول ، موسكو ١٩٠٨ ص ١٨ .

(٣) التجريبية الاحادية الكتاب الاول ، موسكو ص ١٨ ــ ١٩ .

وعلاوة على ذلك فانك توضّح لماذا تجد نفسك « مجبرا » على ان تكون « غير راضٍ » مع اساتذتك . وتـــذكر ان هؤلاء الكتّاب ظل لهم ارتباطان متميزان مبدئيا ، وغير قابلين لأن يتحدا تحت اي قانون اسمى ، هذان الارتباطان هما : ترابط السلسلة الفيزيولوجية من جهة ، وترابط السلسلة النفسية من جهة ثانية . ويجد هنا افيناروس الازدواجية Duality وليس الثنائية Dualism . وانت تعتبر ان فكرته هذه خطأ .

ثم تناقش : « والحقيقة ان القوانين المتميزة مبدئيا والمتعذرة وحدتها ، ليست افضل بكثير من حقائق المعرفة المنهجية المتكاملة المتميزة مبدئيا والمتعذرة وحدتها . وعندما يكون ميدان التجربة منقسما الى سلسلتين ، تكون معهما المعرفة مجبرة على العمل بصورة متباينة ، فالمعرفة عندئذٍ لاتشعر بنفسها كاملة ومتناسقة. اننا نواجه عدداً من الاسئلة تهدف لاستئصـــال الازدواجيـــة واستبدالها بوحدة اسمى . فلماذاً يوجد قانونان متميزان مبدئيا ولماذا يكون اعتماد السلسلة « الفيزيولوجية » وبعلاقة وظيفية في ساقية واحدة من التجربة الانسانية ؟ ولماذا هما اثنان بالضبط؟ وثيقة الصلة (وتحديدا) مع الجهاز العصبي وليس مع «جسم آخر » ما ، ولماذا لا توجـد في حقل التجربة اعداد لاتحصى مـن السلاسل الاتكالية المترابطة مع « اجسام » من انماط اخرى ؟ لماذا تظهر بعض مركبات العناصر في كلا سلسلتي التجارب ــ سواء « كأجسام » و ك « معانٍ » ــ في حين ان الاشياء الاخرى ليست هي اجسام وتتعلق دائما بسلسلة واحدة ، وهلمجرا(١) » .

---

(١) التجريبية الإحادية الكتاب الاول موسكو ١٩٠٨ ص ١٩ ــ ٢٠ .

وبما أن وجهة نظر ماخ وآفيناروس للعالم « العميقة الجذور في الاشياء المكتسبة من العلم المعاصر » لاتستطيع ان تقدم اجابة على اسئلتك المتعددة التي تكررها ، فانك وبغرورك الـــذي يميّزك تعهدت « بمهمة قهر هذه الازدواجية(١) » وتتبدى هنــا تماما عبقريتك الفلسفية وبأبهى صورها في احترابك مع هــذه الازدواجية .

وقد حاولت قبل كل شيء ان توضح اين يقع التمايز بين هاتين السلسلتين من التجربة ، سلسلة الجسدي ، وسلسلة النفسي ، وبعدئذٍ ترغب « فيما لو كان بالامكان مراقبة اصل هذا التمايز(٢) » وهكــذا فالمعضلة التي وضعتهـــا بنفسك تقـــع في مشكلتين منفردتين ، وقد حلت المشكلة الاولى من هاتين بالطريقة التالية :

استنادا اليك ، فإن السمة الثابتة لأي شيء مادي هـــي موضوعيته . والجسدي دائما يكون موضوعيا . وبناء على ذلـك فإنك تحاول ايجاد تعريف للموضوعي . ولم يمضِ وقت طويل قبل ان تقتنع بأن التعريف التالي يجب ان يقبل كتعريف اكثر صحة:

« اننا نطلق على معطيات التجربة صفة الموضوعية التـــي لها نفس المعنى الحيوي بالنسبة الينا وللآخرين . تلك المعطيات التي لانقتصر على بناء نشاطاتنا بواسطتها وبدون تناقض فقط ، بل والتي من خلالها تقنع الناس الآخرين لأن يبنوا انفسهم من اجل تفــادي التناقض . ان السمة الموضوعية للعالم المادي تتضمن حقيقة انها لا توجد بالنسبة لي شخصيا فقط ، بل توجد لكل انسان ، ولها معنــى محــدد بالنسبة لكــل انســـان . فـــأنــا مقتنــع ، بالنسبة لي ان موضوعية السلسلة الفيزيولوجية تكمن في دلالتها

---

(١) التجريبية الاحادية ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابــق .

الشاملة . واما بالنسبة «(الذاتي)» في التجربة ، فتلك التي لا دلالة شاملة لها . تلك التي لها معنى واحد بالنسبة لشخص من آشخاص متعددين(١) .

وبايجادك هذا التعريف ، الذي يصل الى مستوى الموضوعية لأنه ذو مغزى شامل ، وباعتبار ان المعنى الشامل هنا هو التنسيق بين مختلف الناس ، فأنت تعتقد انك قد حللت اولى القضيتين الثانويتين اللتين قسّمتَ قضيتك الرئيسية اليهما . والآن فأنت تنتقل الى الثانية وتتساءل من اين نحصل على هذا التناسق وهذا التطابق المتبادل ؟ هل يجب اعتباره ك « نظرية ازلية » او كنتيجة للتطور(٢) ؟ ومن السهل التخمين بأي معنى حللت هذه الاسئلة ، فأنت تعتبر نفسك مدافعا عن التطور على حد قولك : « ان السمة العامة لميدان التجربة « المادية » كما علمنا هي الموضوعية ، او الدلالة الشاملة . وانَّنا نربط بالعالم المادي وعلى وجه الحصر كل ما تعتبره موضوعيا... ان تناسق التجربة الجماعية التي تظهر في هذه الموضوعية قد تبدو نتيجة لتنسيق سابق لتجربة اناس متعددين بواسطة وسائل مشتركة . ان موضوعية الاجسام المادية التي نصادفها خلال تجربتنا هي في التحليل الاخير قد نشأت بواسطة التحقق المشترك وتنسيق وسائل التعبير عند مختلف الناس . وعموما فإن العالم المادي منسّق اجتماعيا ومنسجم اجتماعيا ، اي انه بكلمة واحدة تجربة منظّمة اجتماعية(١) .

وهذا امر واضح الى حدٍ كاف . ولكنك تخشى سوء الفهم

---

(١) التجريبية الاحادية ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) التجريبية الاحادية ص ٢٣ .

(٣) التجريبية الاحادية ص ٣٢ ـ ٣٣ .

وتفترض ان احدا قد يتساءل : « هل يجب على انسان رضت ساقه بحجر آن ينتظر انسانا غريبا ما كي يقتنع بموضوعية الحجر ؟ » وتجيب مسبقا على سؤال قيّم : « ان موضوعية الاشياء الخارجية تتقلص دائما آلى مجرد تبادل كلام في التحليل الاخير ، ولكنها ليست مرتكزة عليه مباشرة ، والى حد بعيد وخلال مسيرة التجربة الاجتماعية نشأت علائق عامة معينة وعلاقات عامة ينظمها القانون (المكان والزمان المجردان من ضمنها) العالم المادي الذي يحيط بها . وهذه العلاقات العامة التي تشكلت وتوطدت اجتماعيا تتصل في معظمها بالتنسيق الاجتماعي للتجربة وهي **موضوعية** الى حد كبير . ونحن نعرّف كل تجربة جديدة تتفق مع هذه العلاقات وتدخل تماما في حدود هذه العلاقات على أنها تجربة موضوعية . دون انتظار كلام من احد . وتتلقى كل تجربة جديدة وبشكل طبيعي معالم التجربة القديمة وبالشكل الذي تبلورت فيه .

وهكذا ترى ياسيدي العزيز انني في تقديم آرائك قد وفّرت لك حق التحدث عن نفسك بشكل بدهي باعتبارك اقدر من يتعامل مع ما يعتبره بعض القراء (، وكمثال على ذلك السيد دواغ) « فلسفة بوجدانوف » . ولا يمكنك القول بأنني خلال تقديمي لأفكارك قد غيّرت اياً من محتواها . وهذا تسهيل عظيم لك . ولذلك فانني ادعوك ثانية للتحدث عن نفسك لتبدد اية اساءة فهم ، ربما تكون قد نشأت فيما يتعلق بالمثال الذي اوردته عن الحجر . فقد قلت أن الحجر يواجهنا كشيء موضوعي لأنه موجود وسط اتساق مكاني وزماني للعالم المادي ، ولكن يمكن ان يثار هنا اعتراض بأنه حتى الاشباح قد تشغل هذا الاتساق المكان والزماني للعالم المادي . حقا هل الاشباح موضوعية ايضا ؟

انت تتنازل وتبتسم وتشير الى ان موضوعية الظواهر تدخل في نطاق سيطرة التجربة الاجتماعية المتطورة او ان التجربة تثيرها احيانا . « ان الغول الذي يخنقني في الليل يكتسب صفة الموضوعية بالنسبة الي الى درجة لا تقل عن الحجر الذي رضضت ساقي به ، غير ان كلام الآخرين يلغي هذه الموضوعية . ولو نسينا هذا المحك الاسمي للموضوعية ، فقد تخلق الهلوسات المنظمة عالما موضوعيا من النادر يوافق عليه الناس الاصحاء(١) » .

- ٣ -

سأتوقف الآن عن ازعاجك لفترة . فقد قلتَ ما فيه الكفاية؛ واود ان افكر مليا بكلماتك . والآن فاننا نملك بفضلك تفحص « محك اسمي للموضوعية ، والى اية درجة تصل موضوعيته ! وانني احب ان اعاين كيف ان نظريتك الخاصة المتعلقة بالموضوعية ، موضوعية ، اي مدى بعدها عن الذاتانية (او العندية) Subjectivism(٢) .

اتكلم شخصيا وفيما يتعلق بي ، فلم يحدث قط ان خنقني غول في الليل . ولكن يقال ان ذلك يحدث غالبا لزوجات تجار قرية زاموسكوفوريش Zamoskvorechye اللواتي يحببن تناول وجبة اثيرة لفؤادهن قبل الذهاب الى النوم . ويكون الغول بالنسبة لهؤلاء النسوة لايقل موضوعية عن الحجارة التي تعبد شوارع

(١) التجريبية الاحادية ص ٣٤ .

(٢) الذاتانية (أو لعندية) Subjectivism مذهب فلسفي يقرر أن المعرفة نسبية بين العارف والمعروف وأنها من عند العارف المنفعل بالمعروف (المترجم) .

زاموسكوفوريشي (لسوء الحظ ليس دائما). والسؤال الذي يبزغ هو : هل الغول موضوعي ؟ لقد تعهدت بأنه ليس كذلك ، حيث ان كلام الناس الآخرين قد نزع الموضوعية عنه . ولكي تكون على ثقة فإن هذا مفرح للغاية حيث ان كل شخص سيوافق على ان الحياة ستكون سلمية بدون الغيلان اكثر من وجودها . وهنا على أي حال تواجهنا عقبة صغيرة ولكنها كريهة ، ففي هذه الايام هناك فئة قليلة من الناس تقول انه لا يوجد هناك شياطين بصورة عامة ولا غيلان بشكل خاص . وفي الوقت الراهن فإن كل هذه « الارواح الشريرة » قد جرّدت من علامتها « الدلالة الشاملة » ولكن كان هناك دور عندما عزيت هذه العلامة «الدلالة الشاملة » وبشكل اجمالي الى « الارواح الشريرة » الا ان (جميع وقائع الوقت الراهن) ماتزال مقصرة عن اقناع بعض الناس بلا « موضوعية » الغول . ما الذي ينتج عن ذلك كله ؟ هل الغيلان تظهر بمظهر يميّز الوجود الموضوعي ؟ اذا برهنا من وجهة نظرك المتعلقة « بالمحك الاسمي للموضوعية » فعلينا ان نجيب بالايجاب. وهذا وحده تماما كافٍ بالنسبة لنا لنرى مدى عبثية هذا « المحك السامي » ولكي نرفض نظريتك عن الموضوعية باعتبارها عملا سخيفا لمفكر تعوزه الخبرة .

واذا اردنا ان نضيف ، يمكننا القول بأنك اعطيت السؤال انحرافا آخر : فقد قلت « ان التجربة الاجتماعية بعيدة عن ان تكون منظّمة اجتماعيا ، لأنها تشمل دائما تناقضات شتى حتى ان بعضا من اقسامها لا يتفق مع اقسامها الاخرى. الجان والغيلان يمكن ان توجد في دائرة التجربة الاجتماعية لأناس معينين او لمجموعة معينة من الناس ، كالفلاحين على سبيل المثال . ولكن لا حاجة لانضوائهم تحت التجربة المنظمة اجتماعيا او التجربة

الموضوعية ، لأنهم لا ينسجمون مع باقي الخبرة الجماعية ولا يتلاءمون مع أشكالها المنظمة كسلسلة العلية على سبيل المثال » .

الجان والغيلان لا تنسجم مع باقي الخبرة الجماعية !في الحقيقة يا سيدي العزيز ، مع خبرة باقي من ؟ اذا كان كل الناس المدرجين كمثل يؤمنون بوجود الجان والغيلان ؟ من الجلي ان الجان والغيلان لاتناقض على الاقل باقي الخبرة الاجتماعية . اما اذا كانت مماثلة في ذهنك الخبرة الاجتماعية . لأناس متطورين اذا كان الامر كذلك ، فانني اتوسل اليك ان تخبرنا كيف تقف الامور اذا كان بعض من هؤلاء يؤمن ايضا بوجود الجان والغيلان ؟ لقد كان في الواقع هناك مثل تلك الفترة ، وانت تعرف ذلك بنفسك (مذهب حيوية المادة البدائي(١)) ففي عهد مذهب حيوية المادة البدائي ، فإن الجان والغيلان وكل الانماط الاخرى من الارواح بصورة عامة كان لها وجود موضوعي . وطالما بقيت متمسكا « بمحكك الاسمي من الموضوعية » فلن ينقذك اي تحفظ من هذه النتيجة .

وماذا عن سلسلة العلية ؟ وبأي حق تذكرها في هذا المجال . الم تصرح بنفسك وقبل صفحات قليلة ان هيوم Hume عنده كل الحق لانكار الدلالة الشاملة والمطلقة للعلاقة العلية(٢) ؟ . يمكن فهم هذا تماما عند النظر اليه من زاوية مبدئك المتعلق بالتجربة . وطبقا لهذا المبدأ فإن الترابط العلي ما هو الا « نتاج متأخر

---

(١) Animism مذهب حيوية المادة : حضور الارواح في جميع الموجودات الطبيعية . وهذا هو اعتقاد الانسان البدائي .

(٢) التجريبية الاحادية ص ٣٤ .

نسبيا للتطور الاجتماعي الادراكي » . وبالاضافةالىهذا ففي فترة معينة لدورة هذا النتاج (فترة مذهب حيوية المادة) فإن معنى الجان والفيلان كان متمشيا تماما مع مفهوم الترابط العلي . ولهذا السبب من الواضح انه من وجهة نظرك فإن الترابط العلي لا يمكن أعتباره « كمحك أسمى للموضوعية » !

كلا يا سيد بوجدانوف . فمهما داورت والتويت فإنك ابدأ لن تهز الغيلان والجان كما يقولون لا عن طريق الصليب ولا عن طريق المِدَقّة . ان مبدأ صحيحا للتجربة يمكنه ان ينقذك فقط منها . ولكن « فلسفتك » بعيدة عن مثل هذا المبدأ بعدنا عن نجوم السماء .

وما دمنا مسترشدين بالمعنى الجلي والمتعذر اجتنابه لنظريتك عن الموضوعية ، فيجب علينا ان نجيب على مسألة وجود الغول بهذه الطريقة : كان هناك وقت تمتع فيه الغول بوجود موضوعي ، وبالتالي فإن « الجد الكبير » Grand dad (كما اعتاد الفلاحون أن يدعوه في وقت متأخر) فقد الوجود الموضوعي ، وهو موجود الآن فقط بالنسبة لزوجات تجار قرية Zamoskvorechye ولأشخاص آخرين عندهم عادة سيئة وهي ان يهلوسوا بكلمات تكتسب لديهم معنى المعاناة .

ما هو التطور الذي مر به الغول ؟ ولماذا مر به ؟ لأن الناس بدأوا التحدث بكلمات ضده . ويجب الاقرار بأن المرء يسمع في مناسبة ما بعض « الكلمات » الهامة . والواقع ان الكلمات المعاصرة تجرد الغول تماما من الوجود الموضوعي في حين ان المرء في العصور الوسطى استطاع ان يتخلص من هذه الكلمات بواسطة الرقية والتعويذة . وبهذه الطريقة قد تبعد زوجة تاجر معين

الغول ، ولكنها لم تستغن عنه تماما . والآن نعتبر الامور افضل بكثير من ذي قبل .

وما زال يوجد اناس يشكّون بقوة التقدم .

واذا كان قد وجد وقت امتلك فيه الغول وجودا موضوعيا فيمكن الافتراض ايضا ان ذلك الوجود الموضوعي امتد وبتزامن واحد الى السحرة والعرافين . ثم ما هو رأيك بتلك الاجراءات القضائية التي امل الجنس البشري بواسطتها في القرون الوسطى وضع نهاية لبعض مكائد الشيطان البغيضة التي كانت تتسم بسمة « موضوعية » ؟

من الواضح ان تاريخ الفكر البشري يجب ان يتخذ مظهرا جديدا تماما بعد ان تم فحصه بمعونة «**معيارك سامي الموضوعية**»! وهذا امر بحد ذاته ممتاز ! **ويكفيك لنيل لقب يتناسب مع** موهبتك الفلسفية . ولكن المسألة لما تنته . ان معاينة الامور من وجهة نظر « معيار سامي الموضوعية » يضفي تاريخا جديدا ومشرقاً لظهور الارض . ففي سياق السبعين عاما الاخيرة فقد صارع العلم الطبيعي بصورة عامة من اجل سيادة فكرة نظرية النشوء ولكننا بعد الاستماع اليك ياسيد بوجدانوف فاننا مجبرون للاعتراف بأن فكرة النشوء التي سادت تدريجياً بفضل العلم الطبيعي الحديث ليست شيئا اذا قورنت بفكرة النشوء التي قدمتها . علما بأنك تنطلق من مبادىء العلم الطبيعي ذاته وفي هذا المجال لا شك انك تحقق ثورة ثانية !! وبذا تحوز على الموهبة مرتين ، مرة في ميدان الفلسفة ، ومرة في نطاق ابداع نظرية نشوء ثانية ! !

اننا جميعا نحن الناس « المجدفون » الذين نتمسك بنظرية النشوء القديمة مقتنعين بشدة بأن ظهور الانسان وبالتالي

« وسائل تعبيره » قد سبقا وبفترة طويلـــة بمرحـلة تطور في كوكبنا الارضي .

لا يوجد ادنى شك بأن كوكبنا ينتمي الى عالم « مادي » موضوعي . وبطريقة مماثلة لا يوجد ادنى ظل من الشك بأن عملية تطور هذا الكوكب هي جزء من العالم ذاته .

ولكنك تقول ياسيد بوجدانوف انه « وبصورة عامة فالعالم المادي هو متناسق – اجتماعيا ، ومنسجم اجتماعيا(١) » . اي ان وجود الانسان يتقدم على وجود كوكبنا : جاء الانسان اولا وبدأ في ايجاد « وسائل تعبير » ثم جاء العالم المادي بصورة عامة وكوكبنا الارضي بصورة خاصة . وهذا بالطبع « تطور » ولكن « تطور » مقلوب ، او اكثر صحة تطور نحو الخارج . ويمكن ان يبدو للقاريء انه اذا كان وجود الانسان متقدم على وجود الارض فيجب ان يكون الناس قد علقوا في الهواء لبعض الوقت . ولكنني اعرف كما تعرف انت ياسيد بوجدانوف ان هذا ببساطة « سوء فهم » وان ذلك نتيجة اهمال لمتطلبات المنطق . وهكذا ففي ذلك الوقت الذي هو الآن محل نقاشنا كأني به حسب نظريتك لـم يكن يوجد به هواء او ان نظريتك تخلص الى مغالطة رهيبة هي انه لم يكن هناك شيء ما بالمعنى المادي الموضوعي ، وانما كان يوجد اناس «نقلوا» تجاربهم الواحد الى الآخر ثم نسقوا تجربتهم ثم ماذا ؟ ثم خلقوا العالم المادي ! هكذا وبكل بساطة ! !

وسوف اشير في سياق حديثي هذا الى انه وضح الآن تماما لماذا شعر سميّك الفكري السيد لوناتشارسكي بندائه الديني

---

(١) اذكرك سيدي العزيز بان هذا قد ورد من قبلك وفي الصفحة ٣٣ من الطبعة الثالثة من الكتاب الاول من التجريبية الاحادية .

الباطني لابتداع ديـــن « بدون آله » لنا . **اولئـــك الذيـــن يؤمنون بالله، يعتقدون فقط بأنه خالق العالم** . ولكنك ياسيد بوجدانوف بيّت لنا بوضوح وخاصة فيما يتعلق بسميك السيد لوناتشارسكي ان العالم قد خلق من قبل الانسان وليس من قبل الله . وقد يلاحظ قارىء ما بأن « الفلسفة » التي تدّعي بأن العالم المادي قد خلق من قبل الانسان ، ماتزال مستمرة الا أنها طبعا فلسفة تنـــزع نزوعـــا مرضيـــا نحـــو الانســـان ! ويمكـــن أن يضيف هـــذا القـــارىء الـــى انها الاختيار الوحيد للتطابق مع تعاليـــم ماركس وانجلز . ولكنـــك وانا معـــك يا سيد بوجدانوف سوف تقول مرة ثانية بأن ذلك « سوء فهم » فقط . ان الفلسفة التي تعلن ان العالم المادي هو نتيجة تجربة اجتماعية منظمة ، هي فلسفة لا تقل سخافة عن غيرها من الفلسفات التي تهمل اليقين العلمي . ان صراع الانسان من اجل الوجود يفترض مقدما عملية اقتصادية في الانتاج . والعملية الاقتصادية للانتاج تفترض وجود بعض علائق الانتاج اي نظاما اقتصاديا محـــددا للمجتمع . ومفهوم النظام الاقتصادي للمجتمع يفتح امامنا مجالا واسعا من « المادية الاقتصادية » وعلينا ان نملك موضع قدم في هذا الميدان من أجل ان نكتسب وعن جدارة لقب ماركسيين . واي ماركسيين ! الاكثر تطرفا من جميع أولئك الذين وجدوا قبل ظهور الارض نتيجة لتجربة اجتماعية منظمة . وبذا نكون حسب نظريتك لسنا ماركسيين عاديين ، بل اننا فوق ــ الماركسيين . يقول الماركسيون العاديون : على اساس من العلائق الاقتصادية والوجود الاجتماعي تنبثق ايديولوجيات تتطابق مع واقع تلك العلائق « ولكننا نحن الذين فوق ــ الماركسيين نضيف : « وليس الايديولوجيات فقط بل العالم المادي ايضا » ! ويستطيع القارىء ان يرى الآن اننا ماركسيون أفضل من ماركس نفسه » .

من الطبيعي يا سيد بوجدانوف ان تصرخ بملء فمك احتجاجا على مبالغتنا هذه ، ولكنك سوف تضيّع جهودك عبثا ، فليس هناك أدنى مبالغة في كلماتي . لقد تصورت انه بتطابق العالم المادي مع التجربة الاجتماعية المنظمة انك فتحت امام المادية الاقتصادية آفاقا نظرية جديدة عريضة . انك ساذج يا عزيزي ، ساذج اكثر من جميع الذين عالجوا موضوع المادية الاقتصادية ، وانني ليحضرني الآن قانون نيوتن : لم اخترع فرضية . وسوف اقدم استثناء صغيراً لهذا القانون العام : انني اعترف بأن لديّ ارتيابا قويا من جراء مداخلاتك في شرح ماخ . فأنت تقول : « حيث يلخص ماخ العلاقة بين المعرفة وعملية العمل — الاجتماعي ، فان تطابق افكاره مع افكار ماركس يشكل مفاجأة حقيقية »(١) التجريبية الاحادية ، الكتاب الاول ص ٨ . ثم تذكر ما يلي من ماخ : « ينشأ العلم من حاجات الحياة العملية ... من التقنية » والآن فان هذه التقنية ترتبط بالضبط مع كلمة « اقتصاد » فلقد فكرت انه بقرن ماخ وماركس فانك سوف تقرّب نظرية المعرفة لاتجاه جديد ، ثم الادعاء بأنك مفكر بارز ! او تظن نفسك انك مندوبٌ لتصحح وتضيف الى تعاليم ماركس وانجلز ! او تظن ان تعاليم هذين تقارن بتعاليم ماخ وافيناروس ؟ ان ذلك سوء فهم ايضا . هذه المرة سوء فهم بدون علامات اقتباس . لقد هبطت بماخ الى مستوى عبثي ، وظهرت امام اعين الجميع بأنك مخطىء جدا في حسبان نفسك ماركسيا جيدا : وباختصار فان النتائج التي وصلت اليها كانت تختلف عن النتائج التي كنت تتوخاها .

---

(١) التجريبية الاحادية الكتاب الاول ص ٨

عندما أردت تحليل نظريتك في الاستبدال Substitution:
كان عليّ مرة ثانية ان اتطرق لسؤال : ممم يتألف الجسم البشري؟
وكيف يتشكل ؟ وعندئذٍ اصبح واضحا امامي انك « اضافة »
لماخ تتقمص مذهباً مثاليا مشوّها . وتعتقد انه اصبح ملائما ان
تستنتج العالم المادي الموضوعي من « وسائل تعبير » البشر ! !
ان افكارك في هذا النطاق هي مجرد هلوسات ! وفي نطاق الفلسفة
فإن نتاج كتاباتك التي يمكن وضعها خارج قوس تندرج تحت
عنوان كبير هو الاحادية التصورية . وفي مقدمة كتابك الثالث
من التجريبية الاحادية حاولت انكار هذا العار ولكنك فشلت .
وهذه ليست اول مرة اعيّبك بهذا يا سيد بوجدانوف كما انه
ليس لك ادنى حق منطقي في التبرؤ من الاحادية التصورية . ثم
اولست تسلّم بوجود « اناس لا يفقهون المنطق » ؟ نعم ياسيدي
يوجد اناس لا يفقهون المنطق ! وبالنسبة لمثالك حول الاشخاص
فانني اقول اذا كان هؤلاء الافراد موجودون في ادراكي فإنه في
الوقت ذاته لهم وجود مستقل ومنفصل عن ادراكي . وهذا يعني
بالتأكيد انهم موجودون ليس فقط من اجلي » بل ايضا « في
انفسهم » . وانت ماذا تقول عن الشيء في ذاته » ؟ تقول « انزع
شعر رأس رجل ، ولكن شعرة ، شعرة ، هذا الرجل لن يكون
اصلعا ! ولكن انزع الشعر كله دفعة واحدة ، يصبح الرجل
« قمة التجريد الميت » (Copf Motum) اذا كانت جميععناصر
اصلعاً . ومثل هذه العملية ينتهجها الجوهر الذي دعاه هيغل
« رأس التجريد الميت » اذا كانت جميع عناصر المركب منفصلة ،
المركبمنفصلة ، فإنه لن يوجد مركب . لن يبقى شيء الا الكلمةالتي
تدل عليه .

تدل عليه . والكلمة هي «الشيء في ذاته» وهكذا «فالشيء في ذاته» ليس هو الا كلمة فارغة مجردة من كل مضمون !! اذن ان الفردي(١) (Einzeln)«في نفسه» هو ايضا كلمة فارغة. واذا كان الفرد «في نفسه» كلمة فارغة ، فإن الافراد لا يوجدون الا في ادراكي فقط، واذا كان الامر كذلك فانني وحيد في العالم ... وهكذا نصل حتما الى الاحادية التصورية في الفلسفة ولكنك مازلت حتى الآن تتبرأ من الاحادية التصورية يا سيد بوجدانوف ؟ لنتحدث فيما بيننا يا سيد بوجدانوف ، وسوف أشرح لك أفكاري بوساطة مثل تصويري . لا شك انك قرأت مسرحية هاوبتمان (Und pnppa tanzt) بيبا ترقص . تسأل بيبا في الفصل الثاني بعد ان تسترد وعيها : اين انا اذن ؟ ويرد عليها هيلرغل : في رأسي !. ولقد كان هيلرغل محقا . وكانت بيبا توجد فعلا في رأسه . ولكن السؤال الذي يظهر الآن : هل كانت بيبا موجودة فقط في رأس هيلرغل ؟ لقد افترض هيلرغل وفي حالة انفعال أن بيبا في رأسه فقط . ولكن بيبا طبعا لا توافق على هذا وتحتج : الا ترى انني مكوّنة من لحم ودم ؟ثم يرضخ هيلرغل بالتدريج لحجتها ، وأخيرا يخدد وجنته على صدرها (ويقول هاوبتمان ان هيلرغل يؤدي هنا دور الطبيب) ثم يصرخ هيلرغل : نعم انكِ على قيد الحياة ! انك تملكين قلبا يا بيبا » والآن ماذا حصل هنا ؟

هيلرغل يملك « مركبا من الاحاسيس » قاده الى التفكير بأن بيبا توجد في ادراكه فقط ، ثم يوجد في ادراكه أيضا عدد

---

(١) الفردي (مقولة) ولكن هيغل يجد أن الكلي والجزئي والفردي ليست ثلاث مقولات وانما هي لحظات لمقولة واحدة . هي مقولة الفكرة في ذاتها والفردي هى المقولة الثالثة للفكرة الشاملة .

جديد من (الاحاسيس) [ضربات القلب آلخ] قد اضيف الى هذا « المركب » ثم تحول هيلرغل الىميتافيزيقي بالمعنى آلذي تستعمله خطأ لهذه الكلمة يا سيد بوجدانوف . لقد سلم بوجود بيبا خارج حدود « تجربته » (ومرة ثانية بمعناك للكلمة ياسيد بوجدانوف) اي ان لها وجوداً منفصلا تماما وبدون ادنى اعتبار لأحاسيسه . وهذا واقع بيّن كتبيان أ. ب. ت.

وحالما ادرك هيلر غل ان بيبا لم تخلق من قبل احاسيسه ، بل هي مركبة بطريقة محددة ، وقع فورا على ما لم تفهمه انت اطلاقا يا سيد بوجدانوف . آلا وهو الثنائية . ولو استمر هيلرغل في انكار وجود بيبا في ذاتها فانه سوف يصل لنفس الاحادية التصورية التي تقاتل وبدون جدوى من اجل التنصل من مسؤوليتها .

انت تقول يا سيدي العزيز ان **كانت** جرّد « الشيء في ذاته » من كل معنى وانه اصبح عديم الجدوى معرفيا(١) . قلت ذلك وانت تتصور نفسك كالعادة مفكراً بارزا . وعلى اي حال فليس من الصعب فهم ان هذه الحقيقة التي توردها هنا هي حقيقة رخيصة. لقد قال « **كانت** ان الشيء بالذات » ممتنع على المعرفة . واذا كان ممتنعا من المعرفة فلن يجد حتى اولئك الذيـن لا يعرفون شيئا عن التجريبية الاحادية اي صعوبة في التخمين بأنه عديم الجدوى معرفيا . وماذا بعد ذلك ؟ ليس كما تعتقد سيدي العزيز ان الشيء في ذاته لايوجد . **بل ان معتقد كانت بشانه** كان خطـــأ فقط . ولكنك هكذا تصنف تاريخ الفلسفة وخـــاصة المذهب المادي . وتنسى باستمرار ان الانسان يستطيع ان يقبل بعض التعاليم الاخرى حول « الشيء في ذاته » اكثر من معتقد **كانت** . ومن الواضح انه اذا « كان لا يوجد هؤلاء او اولئك الافراد » في رأسي فانهم يمثلون اشياء في ذاتها بالعلاقة الى نفسي . واذا كان هذا واضحا فيجب ان يكون واضحا ايضا وجوب اعتبارناللعلاقات المتبادلة بين الذات والموضوع . ان نظريتك بشأن الذاتية هـــي امر عجيب ، فقد استثنيت من العالم المادي كل البشر ونسيت وجودهم وانماط علاقاتهم وذلك لسبب بسيط ، لأنك تؤمن بوجهة نظر الاحادية التصورية .

---

(١) التجريبية الاحادية . الكتاب الثالث س . بيترسبورغ ١٩٠٦ ص ٩ .

بين المركب (أ) والمركب (ب) بعض علاقات مقامة . او **تاثير متبادل كما تقول**(١) . المركب (أ) ينعكس بصورة مباشرة او غير مباشرة في المركب ب ، والمركب ب ينعكس او على الاقل يستطيع ان ينعكس في المركب أ . وقدمت في الوقت ذاته تفصيلا تاما بأن اي مركب معطى يمكن ان ينعكس بصورة مباشرة او غير مباشرة في مركبات متشابهة اخرى . وانت بهذا تناقض قولك فيما بعد وخاصة فيما يتعلق بالتبادل(٢) . وسنحتفظ لك هذا التناقض . قلت آن التفاعل بين « الكائنات الحية » لا يتم بشكل مباشر وفوري . وان تجربة كائن ما لا تدخل ضمن مدار تجربة كائن آخر . ولكن هل هذا معقول ؟ واين محصلة التوريث الحضاري والتجربة الانسانية ؟ وهذا لا يشابه قول فيورباخ في كتابه « مقالة تمهيدية لاصلاح الفلسفة Preliminary theses to the Reform of philosiphy [انا (انا) بالنسبة لنفسي ، وفي الوقت ذاته انت بالنسبة للآخرين] وظل فيورباخ ماديا في نظريته في المعرفة . ولم يفصل الانا من الجسم وقد كتب اقول : « انني كائن واقعي وحسّي . ينتمي جسمي لوجودي : يمكن ان يقال ان جسمي في كليته هو انيتي(٣) » وبناء على ذلك ، ومن وجهة نظر فيورباخ المادية فان التفاعل بين شخصين هو « فوق كل شيء » « تفاعل بين ذاتين مدركتين ما بهما وما حولهما وباستجابات تتمايز تبعا للمران والمعاناة وبقدرة الاكتساب للتكيف والتطابق(٤) .

(١) التجريبية الاحادية الكتاب الاول ص ١٢٤ .

(٢) في الصفحة التالية ١٢٥ من التجريبية الاحادية قلت العكس وان التبادل بين « الكائنات الحية » (من المركبات) لايوجد بشكل مباشر وسريع .وهذا تناقض من تناقضاتك العديدة .

(٣) الاعمال ص ٣٢٥ .

(٤) الاعمال ص ٣٢٥ .

- ٦ -

كلمة أخيرة ، وسوف اتمكن بعد ذلك من اكمال قائمة اخطائكم الفاحشة بحق المنطق. وانتقل لنظريتكم في «الاستبدال» . انها هذه النظرية بالذات التي يتوجب ان تفسر لنا كيف يبدو انسان لآخر كمركب نظري – لمسي – سمعي بين المركبات الاخرى.

اننا نعرف سابقا وجود تفاعل بين المركبات ذات التجارب العاجلة (أو ببساطة الناس) فهم يؤثرون في بعضهم بعضا ، وينعكسون في بعضهم بعضا . ولكن كيف يتم هذا « الانعكاس » ؟ هذا هو الموضوع بكامله .

وهنا سوف نضطر الى العودة الى فكرتكم التي اشرتم اليها من قبل وهي انه بالرغم من كل « مركب » يمكن ان ينعكس في مركبات اخرى شبيهة ، فهو لا ينعكس بها بشكله المباشر وانما على شكل تغيرات معينة لهذه المركبات « في شكل توزيع جديد للعناصر تدخل في المركبات ، تزيد في تعقيد علاقاتها الداخلية » . وقد اشرتم بأن هذه الفكرة ضرورية تماما لفهم نظريتكم في الاستبدال . وقد حان الوقت لنعالج هذه النظرية .

وسأعتبر عن هذه الفكرة الهامة بكلماتك نفسها يا سيد بوجدانوف فأقول بأن انعكاس المركب أ في المركب ب يتناقض الى سلسلة محددة من التبدلات في هذا المركب الثاني ، وهي تبدلات تتعلق بمضمون وتكوين المركب الاول بواسطة الاتكالية الوظيفية(١)» . ماذا تعني الاتكالية الوظيفية في هذا المثال ؟ فقط انه لدى التفاعل

---

(١) التجريبية الاحادية ، الكتاب الاول . ص ١٢٤ .

بين المركب أ والمركب ب ، يتفاعل مضمون وتكوين المركب الاول مع سلسلة محددة من التبدلات في المركب الثاني. لا اكثر ولا اقل. وهذا يعني انه عندما يكون لي شرف الحديث معك ، تتطابق « تجاربي » مع تجاربكم . كيف نفسّر هذا التطابق ؟ ليس هناك ما يفسّره فيما عدا تلك الكلمات ذاتها وهي : الاتكالية الوظيفية ــ وهذه لا تفسر شيئا على الاطلاق ولذا اسألك يا سيد بوجدانوف : هل هناك فعلا ما يميّز هذا التطابق « الوظيفي » عن « الانسجام الازلي » الذي ترفضه باحتقار كبير على نهج معلمك ماخ ؟ فكّر ثانية وستجد بنفسك انه لا فرق بين العبارتين وانك بذلك قد اهنت « الانسجام الازلي » لدونما سبب على الاطلاق . واذا اردت فعلا ان تكون صادقا (رغم انه ليس هنـــاك امل كبير بذلـــك) فستخبرنا بأن اشارتك لـ « البيئة » انبثقت عن وعي غامض من تشابه محرج (بالنسبة اليك) بين النظرية القديمة التي تقول بالانسجـــام الازلـــي وبيـــن اتكـــاليتك الوظيفيـــة . ولكن بعـــد الـــذي ذكرته اعـــلاه ، فالبيئة هي « عديمة النفـــع مـــن حيـــث المعرفـــة » لسبب واحـــد على الاقل هـــو طالما انها في نظريتك نتيجة التفاعل بين المركبات فهي لا تفسر كيف يكون هذا التفاعل ممكنا بغض النظر عن « الانسجام الازلي » .
ولنستمر .

فبعد ان كشفنا (ميتافيزيقيا) الفرضية القائلة بأن العالم اللاعضوي (بذاته) هو شيء متميز تماما عن العالم اللاعضوي (في ممـــارستنا) فإنـــك تتابـــع : « اذا كانت « البيئـــة غـــير المنظمة تشكل الصلة الوسيطة في تفاعـــلات العمليـــات الحيويـــة ، واذا انعكست بواسطتهـــا مركبات الخبـــرات والتجارب في بعضها بعضـــا ، فليس هناك جديـــد او غريب

في الحقيقة القائلة بأنه بواسطة مساعدتها فان المركب الحيوي المعطى ينعكس ايضا في نفسه ، ويستطيع المركب (أ) الذي يؤثر في المركب (ب) ، بفضل (ب) أن يؤثر ايضا على المركب (ج) وكذلك على المركب (أ) اي على نفسه . ومن وجهة النظر هذه ، فمن المفهوم تماما ان الكائن الحي يمكن أن يمتلك «ادراكا خارجيا» حول نفسه ويستطيع ان يرى ويسمع نفسه وما شابه ، اي انه بين سلسلة تجارب الذاتية يمكن ان نجد تلك التي تمثل انعكاسا غير مباشر (بفضل البيئة) عن تلك السلسلة ذاتها(١) » .

واذا اردنا أن نترجم هذا كله الى كلام عادي ، فهذا يعني انه حينما يشعر انسان بجسده ذاته ، فهو يكتسب « خبرة » حول بعض « تجاربه » التي تتمثل في شكل « مركب بصري لمسي » لأنها تنعكس بطريقة وساطةالبيئة . وهذا الشيءبحد ذاتهغيرمفهوم نهائيا . حاول ان تفهمكيف يستطيعانسانأن «يختبر تجاربه»حتى ولو ساعدته البيئة ، التي كما رأينا سابقا لا تفسر شيئا(٢) . وانت تصبح هنا يا سيد بوجدانوف ميتافيزيقيا بالمعنى الذي يعطيه (فوليتر) وهو : انه عندما يقول الانسان شيئا لا يفهمه هو نفسه فهو يتعامل بالميتافيزيقيات . ولكن الفكرة التي عبرت عنها غير مفهومة ويمكن اختصارها الى ما يلي :

ليس جسدنا سوى خبرة نفسية تنعكس بطريقة معينة ، واذا لم يكن هذا هو المذهب المثالي ، فماذا يكون ؟

لقد اكملت عمل ماخ بشكل رائع يا سيد بوجدانوف وانا

---

(١) التجريبية الاحادية ص ١٢٦ .

(٢) اننا نستطيع اختبار تجاربنا باستعادة شيء مارسناه سابقا . ولكنك ياسيد بوجدانوف تتكلم عن شيء مغاير تماما .

لا اقول هذا للتسلية . فماخ كفيزيائي جال احيانا في المادية ، وقد اظرت هذا في رسالتي الثانية اليك وبهذا المعنى ارتكب ماخ خطيئة الازدواجية . وقد صححت هذا الخطأ . وجعلت فلسفته مثالية من الالف للياء ، ولا يسعنا سوى امتداحك على هذا العمل .

وارجو الا تظنني ساخراً في هذا الامر يا سيد بوجدانوف . بل على العكس ، فأنا اجزيك الثناء ـ بل ربما اعظم الثناء . وان مناقشاتك التي استشهدت بها تذكرني بتعاليم شيلنغ[1] Schelling حول الفكر الخلاق الذي يتأمل نشاطه الذاتي ولكنه لا يدرك عملية التأمل هذه ، وهو لذلك يعتبر نتائجه كحوادث آتية من الخارج . وبالطبع فقد تغيرت تعاليم ماخ الى حد كبير واتخذت بالفعل مظهراً قد يسميه المرء صورة مشوّهة . ولكن قد يكون عزاء لك انك على الاقل كنت صورة مشوّهة لرجل عظيم .

وعلى اي حال ، يجب ان تلاحظ بانني قد اكون موضع شك من قبلك لأنني أقدم اليك هذا الثناء . كلا واعتقد ان هذا المذهب القديم بفضل خصائص « بيئتك » انعكس دون ان تدري في رأسك كمركب من النتائج الفلسفية للمكتسبات

---

(1) فريدريك فيلهلم شيلنغ Fridrich Wilhelm Schelling (١٧٧٥ ـ ١٨٥٤) يقول شيلنغ ليس اللاشعوري انا او ذاتا ، ولا لاأنا أوموضوعا اذ ليست توجد الذات بدون موضوع يعينها ويظهرها لذاتها ، وليس يوجد الموضوع بدون ذات تتصوره ، وعلى ذلك لايمكن القول بأنا مطلق ، ولابلا انا مطلق ، من حيث أن كلا منهما شرط الاخر ، فيلزم اما ان ننكر المطلق ، وهذا غير مستطاع ، او ان نضعه مثالا صرفا وراء الانا واللاانا ، ووراء كل تقابل ، فنقول انه ملتقى الاضداد جميعا ، وانه منبع كل وجود . ومن ثم لاينبغي القول مع المذهب التصوري ان الانا يحدث اللاانا اذ ليس التفكير احداث موجود ولكنه احداث صورة الموجود .

الرئيسية للعلوم الطبيعية الحديثة . ولكن المثالية تظل المثالية . بغض النظر عما اذا كان الذي يدعو اليها مدرك لطبيعتها ام لا . وبينما تسير على طريقتك الخاصة وتشوه المثالية التي اعتنقتها بدون وعي ، فإنهمن الطبيعي ان تصل الى وجهةنظر مثالية خالصة للموضـوع . وبالرغـم مـن انـك ترفض الفرضيـة : ان الجانب الجسدي ليس سوى الوجه الآخر للنفسية ، ففي الحقيقة يتطابق هذا الافتراض تماما مع الواقع ، وإن وجهـة نظرك كما هي الحال بالنسبة لأي شيء مادي متأثرة تماما ومفعمة بالمثالية ، ولنقتنع بهذا ، يكفي ان نقرا مثلا ملاحظتك العميقـة المتعلقة بهذا الحقل من الكيمياء الفيزيولوجية « وبكلمة ، يجب ان يعتبر ممكنا جدا ان يكون الآح الحي التعبـير الفيزيائي (او الانعكاس للخبرات العاجلة لشخصية نفسية وكلما كانت مركبة كلما كانت عضوية هذا الآح الحي مركبة اكثر في كل حالة(١) » . ومن الواضح ان الكيميائي والفيزيولوجي اللذان يريدان ان يتبنيا وجهة النظر هذه يجب ان يخلقا منظومات مثاليـة صرفة وان يعودا الى علوم شيلنغ الطبيعية التكهنية .

والآن ليس من الصعب ان نفهم تماما ما يحدث عندما يدرك شخص جسم شخص آخر . ولكن باديء ذي بدء يجب ان نعود الى « الاشارات الخاصة بالشواهد » التي لها دور كبير في فلسفتك يا سيد بوجدانوف .

تقول : « لقد اعترفنا بأن الطبيعة الفيزيائية هي **مشتق** (والتأكيد من بوجدانوف) من مركبات ذات طابع فوري (ترتبط بها التناسقات النفسية) وانها صورة لهذه المركبات منعكسة في

---

(١) التجريبية الاحادية ص ٣٠ .

مركبات أخرى مماثلة ولكنها من نمط اكثر تعقيدا (في التجربة الاجتماعية المنظمة اجتماعيا للكائنات الحية(١)) وهذه فلسفة انتقائيـــة لا اكثر ولا اقـــل . ان فلسفتك يا عزيزي هـــي فلسفة اختلاطية وحديثك عن التنظيم الاجتماعي للتجربة يعني القيام بفعل « اشتراكية معرفية(٢) » .

ان المحاولة التي تحاولها من اجـــل « تصحيح » ماركس وتطويره » هي تشويه واضح لهذه المبادىء المادية بروح المثالية . وإن استمرارك في هذا التشويه يعني تحولك الى اداة بيد شوبرت وسولدرن فنظريتك في الاستبدال تقدم خدمة كبيرة لهذيـــن الرجعيين الكبيرين .

وانت يا بوجدانوف طمـــوح . ولكن طموحـــك يسير في اتجاه غريب،انك تريد «تطوير» ماركس . تقول بعدما تستشهد بماركس « ان التعريف القديم للاحادية التاريخية ، الذي مازال صحيحا من حيث الاساس ، لا يرضينا بعد الآن كل الرضا » اي انك سوف تنطلق في تصحيحك الجديد من اسس ماركس ذاتها ! فأين ستصل ؟ وتقدم لنا حجتك الرئيسية « لقد بيّنا ان الاشكال الاجتماعية تنتسب الى جنس واسع من التكيفات البيولوجية . ولكننا لم نعرّف بذلك بعد مجال الاشكال الاجتماعية ، وكـــي نفعل ذلك ، يجب ان نقرر لا الجنس فقط بل النوع ايضا ... ان البشر في كفاحهم من اجل الوجود ، لا يستطيعون ان يتحدوا الا بواسطة **الشعور** وحده : فلا حياة اجتماعية بدون شعور . **لهذا كانت الحياة الاجتماعية في كـــل تظاهراتها حيـــاة نفسية شعوريـــة(٣) .. »** .

---

(١) التجريبية الحادية ص ١٤٦ .

(٢) التجريبية الاحادية . الكتاب الثالث ص ٣٤ .

(٣) التجريبية الاحادية ص ٥٠ .

كانت لديّ نية للحديث بعض الشيء حول كراسك :

« مغامرات مدرسية فلسفية » (س. بترسبورغ ١٩٠٨).
ولكنني اختصر فأقول انه ليست هناك حاجة كبيرة لتحليل هذا الكراس . وآمل ان تكون رسائلي الثلاث قد وضحت المباديء الفلسفية التي تريد لها ان تكون بديلا لآراء استاذك ماخ . وانني بانتظار شيء منك للدفاع عن استاذك او على الاقل للدفاع عن « موضوعيتك » الخاصة وعن نظريتك الخاصة بالاستبدال . وعندئذٍ سيكون لنا حديث آخر .

ج. بليخانوف .

بليخانوف هو المؤسس الحقيقي للماركسية في روسيا . ولد عام ١٨٥٧ وشكل عام ١٨٨٣ في جنيف فرقة تحرير العمل . لعبت مؤلفات بليخانوف دورا كبيرا في نشر الماركسية ، ولعب دورا هاما في تكوين شخصية لينين الذي كان أصغر منه بكثير .

في عام ١٩٠٣ حدث انقسام داخل الحزب الاشتراكي الديموقراطي بين البلشفيك بقيادة لينين وبين المنشفيك فوقف بليخانوف مترددا بين الفئتين ، الى أن انضم في النهاية الى المونشفيك ووقعت القطيعة نهائيا بينه وبين لينين . ولما نشبت الثورة البولشفية عام ١٩١٧ عاد الى روسيا ولكنه رفض الاشتراك في الحكم وظل ضد البلشفية حتى مات بفنلندا عام ١٩١٨ .

كتب لينين عام ١٩٢١ فيما يتعلق بكتابات بليخانوف « أظن أنه من اللائق أن أبدي ملاحظة لمصلحة أعضاء الحزب الشباب . تلكم هي أنك لا تستطيع أن تأمل أن تصبح شيوعيا مثقفا حقيقيا بدون دراسة ـ وأقصد دراسة ـ لكل كتابات بليخانوف الفلسفية ، لانه لم يُكتب عن الماركسية ، في أي مكان من العالم ، أحسن من هذه الدراسات » .

لقد كان نضال بليخانوف ضد المذهب الماخي والفوضوية وأنواع أخرى من المثالية ، حدثا هاما في تاريخ الفلسفة الماركسية .

وقد وجهت الرسائل الثلاث التي يتكون منها كتاب « المادية المقاتلة » بصورة أساسية ضد بوجدانوف (وهو فيلسوف وعالم اجتماع واقتصادي) الممثل البارز للماخية الروسية .

ان صعوبة الرسائل تكمن في أسلوبها المرمّز والفترات الزمنية المتباعدة التي كتبت بها بعض فقراتها ، كل ذلك كان يزيد من صعوبة ترجمة النص الانكليزي المترجم عن الروسي . ليس هذا تسويغ ، ولكنها الحقيقة فهذا النص نقدمه لاول مرة باللغة العربية .

التوزيع في الأقطار العربية

دار دمشق ـ دمشق ـ شارع بورسعيد ☎ ١١١٠٤٨ ١١١٠٢٢